تجليات أدبية

ABU ABDO ALBAGL

هناء عطية

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

تمارين الورد

تمارين الورد

تمارين الورد

هناء عطية

الطبعة الأولى، ٢٠٠٣

(c) ميريت للنشر والمعلومات

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس- ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

الغلاف: **أحمد اللباد**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٣٨٩٥

الترقيم الدولى: **977-351-122-7**

2003

159p. 20cm

أنا محض عباد شمس

فلا هؤلاء يضيئون روحي

ولا هؤلاء

أحمد دحبور

ولكن .. منذ متى وأنا ملتصقة بالباب هكذا ، كأني هنا طوال حياتي !!
لاهثة بخطواتهم المحفوفة بالريبة ، بخطواتهم المتعثرة بحناجرهم، والغرفة البعيدة .. هناك حيث ذبحت جارتي زوجها، جارتي الحالمة بإسراف!!
أعرف الآن أن الرجال الذين تجمعوا حوله ، محدقين إلى نزفه الهادئ، سيلوكون الأسئلة بخفة وهذيان . هؤلاء .. ربما يتحسسون أجسادهم سراً هذه الليلة .. وهم يضجون بالضحك الأكثر ارتباكاً .
أهرول بين الغرف ، ألملم أوراقي المبعثرة .. وإحساس غامض يدفعني إلى الإسراع ، مثلما يحدث في حلمي المتكرر ، حتى لا يفوتني الامتحان ، وتواطؤ مجهول يدفعني بعيداً .
أغلق الأشياء كلها ، النوافذ ــ الأبواب ــ الأدراج ــ أنبوب الغاز ، وكل ما تقع عليه يدي . أحاول أن أرتب أنفاسي، وحركات أطرافي . كم من الأعوام وعظامي تؤلمني على هذا النحو ؟
أفتح الباب، أخرج مهرولة فوق الدرجات القليلة ، وشيء يضغط فوق رأسي. كأني أنظر إلى الداخل .. وبرعب !! هل قال أحدهم شيئاً حول عضو ينزف ؟ أذبحته هناك ؟!

تجلس الآن فوق الأرض ، تدفع بيدها شيئاً غير مرئي ، ونساء يتحركن فوق الرصيف ، يتفككن ويتجمعن في آن نصف غائبات ، وآسي خافت

يتســـلل إلـــى الوجـــوه . من أين أتت كل هذه العصافير ولماذا تتحرك بفوضى هكذا فوق الأشجار؟!

أجلـــس أمـــام جارتـــي فوق الأرض ، أتفرس فيها كأني أراها للمرة الأولـــى. خـــيل إلى أنها ابتسمت وهى ترفع رأسها عالياً ، محدقة إلى سماء صافية .

أتـــراجع إلـــى الوراء حيث الرصيف المقابل ، اختبىء خلف الأشجار وأحدق هناك .

كان الشيش مواراباً بشرفتها الواطئة ، وفي العمق .. كانت تلك المنضدة بمزهريـــتها ، زهور (عباد الشمس) في ذروة تفتحها ، وأطياف لرجال تـــتحرك فـــي ظلال تلك الظهيرة . كيف تفتحت تلك الزهور على هذا النحو المريب ، ولماذا أطيل النظر هكذا إلى شرفتي المجاورة لشرفتها . شرفتها !!

شرفة واطئة
شرفة لا تكفى للتذكر
لا تكفى للنسيان
شرفة !!
شرفة للرمادى القاسي
شر..... !!

تتكرر فى رأسي شرفة .. شرفة ، تتفتت الكلمات بعيدا.

أقترب من جديد ، أدرك للمرة الأولى أنها مازالت بقميص نومها . كان يكشـــف جـــزءاً كبيراً من ساقها اليسرى ، ثدياها الصغيران ملتصقان بالقميص .. يشفان تحته دون حمالات للصدر. أحكم الفتحة أسفل عنقها، أشد الأطراف إلى ساقيها بيد مرتعشة ، أفكر بغموض في ثدييها وأشياء تشبه الفقاعات تتحرك حوله .

– اهربي .. هاتهربي ؟

شـــعرت بـــيدها تضغط فوق يدي وهى تنظر في عيني طويلاً وتعالت دقاتي لتشق صدري . فكرت أنني سأموت في الحال فرحت أبحلق في أوراقي الموضوعة فوق ركبتيها وأصابعها التي أخذت تتحسسها . جاء صوتها بعيداً.

– شعر ؟

– .....

– لسه بتكتبى ؟

حاولت أن أتذكر كيف أتيت بأوراقي إلى هنا وأنا ألملمها من جحرها . أتلفت حولي مرددة بصوت مخنوق .

– ازاى حصل ؟!

– .....

– الصبح شفتك

– .....

– في شباك المطبخ

– .....

– كنت بتقوليلى أيه ؟ ماسمعتكيش .. الصوت دايماً بعيد..

- بعيد !!
- .. قولتى بعيد ؟
- بعيد

أتعـــثر فيهن حين أقف من جديد ، تتخبط سيقانهن ببعضها وسط عرق غزيـــر . أهرول إلى شقتي المقابلة لشقتها ، أفتحها بسرعة . أنظر إلى الداخل .

صور لزوجي وطفلي وأخرى لأسرتي . أمي ، والدي ، شقيقتي - في مناســبات مختلفة ــ موضوعة فوق المكتبة . كأنى أدرك للمرة الأولى أن لا صورة لى معهم .. ولا واحدة.

أفــتح الأدراج .. أفتش فيها ، تتحسس أصابعي أشياءها المنسية، تقبض علــى صــوره . وجــه ينضــح بالطيبة والفقر .. صاحبه يرتدى زى الشــرطة الأســود الشتوى .. يقف متصلباً في محاولة لإضفاء الالتزام مثل كل العساكر . أحاول تذكر صاحب الصورة .. أتركها هناك. تلفني ظلال واهنة .

أغلق الباب من جديد ، أدير المفتاح فيه مرتين ، ثم أعود لأديره مرات عديدة . أسرع إلى الخارج ، مهرولة في الشارع الطويل وصورة بيتي تــتردد فــي رأسي مثل ديكور بأحد الأستديوهات . أتوقف متكئة إلى الحائط وصراخ سارينة عربة الشرطة تتفجر حولي. أفكر وسط إعيائي أن أعــود إلــيها قبل أن يأخذوها .. لكنى أظل أبتعد وأنا أشعر بشيء يتصاعد من روحي فيما يشبه البخار !!

يطـــل مطبخـــي علـــى مطبخها من ناحية (المنور) يرى كل منا الآخر متخـــبطاً بدراما الطعام اليومي . نحكي أشياء غير مكتملة ونضحك من أصـــواتنا الضـــائعة وسط الأبخرة المتصاعدة. نكرر نفس الشيء من جديد، نكتفي بالكلمات المشتتة التي نسمعها . في أيام أخرى كنا نستبدلها بأغان نضعها في المسجل ونظرات نتبادلها بين الحين والآخر .

أراها باكية في ليلة بعيدة أمام الموقد وصخب أصدقاء زوجها يتردد من الداخل . كان الجو شتاء والناس نياماً . لا أذكر حتى الآن كيف أخذت أصـــيح وأنـــا أردد علـــيها مقطعاً من قصيدة لي لأدخل عليها البهجة (كانـــت عـــن امرأة تجمع الأصداف .. من الشواطئ وتتبع ما يخلفه الناس من أثر فوق الرمال) رأيتها تضحك ومطر يسقط بيننا خافتاً فوق أرض المـــنور . كنـــت أعـــرف أنها لم تسمعني. ماذا كانت تريد أن تخبرني هذا الصباح ؟

الصباح الفاتن

الصب.....!!

* * *

يصعد وجهي بطيئا فوق المرآة، في العين نظرة بعيدة تكاد تفلت مني . ساكنو البناية يعبرون خلفي سريعاً ، أفرك أوراقي بأصابعي . أفكر في الذهاب إلي زوجي حيث يقضي عدة أيام عند أمه المريضة ، أستحضر وجـــه طفلـــي الـــذي أصطحبه معه ، تصطدم صـــورته بغيوم كثيفة ، أحاول من جديد باحثة عنه في وجه زوجي . لاتأتي إلا العين الباردة .

– بُوصلى يا حبيبى .. زى ما أكون هاصورك .

– أزاى يا ماما ؟!

أقبض على روح طفلى في الصور فقط . حين لا تكون الكاميرا أكاد لا أعرفه .

قالت السيدة التي أطلت من خلف الأعمدة الحديدية لباب البناية : نستيني يا مدام ؟!

تشـــير بيدها إلى شيء ما، أري طفلاً لاهثاً تأرجح جسده الضامر تحت جلـــبابه ، يتفرس فيَّ . تشير إليه تلك الإشارات الخاصة بالصم و البكم .. يتأملني من جديد .

– بقول له سلم على أمك ..

– .....

يمـــد يده الصغيرة إليّ من بين الأعمدة ، ألتقط يده بين كفى ، أستطرد بوهن:

- هو
- هو
- إزاى بقى كده ؟!
- هو كده من يومه
- .....
- واقفة هنا ليه ؟

أرانـــي هناك حيث البنايات المجهولة ، جالسة فوق الدرجات أو مختبئة فـــي ركـــن مـــن أركان مدخل متسع لإحداها .. مظلماً ورطباً . كأني مازلـــت تلك الطفلة المتكورة على نفسها تحت الفراش .. وسط الظلام والتراب .

أترك كف الطفل ليسقط هادئاً فوق النقوش الحديدية للباب.
أخرج إليهما ، تشرح له وهى تشير إلى ثدي ، إشارات توضح أنني تلك المرأة التي أرضعته .
- لا بيتكلم ولا بيسمع ؟
- ما أنا قلتلك .
تخبط جلبابها الأسود بكفها مستطردة
- أنا غيرت مكاني من زمان .
أحيط كتفه بذراعي ، أدفعه برفق وارتباك بعيداً عنها ، أحاول أن أقول له أى شيء مستعينة بتلك الإشارات .. أفشل.

أتفــرس فــيه وضــوء الظهيرة يأكل رأسي . أخرج منديلاً ورقياً من حقيبتــي ، أنظف أنفه وأنا أتشمم رائحته . خيل إلى أنها تشبه (الحلاوة الطحينية).

تمــتد يــده الصغيرة لتلامس ثديي ، أزيح يده بضيق ، يكرر المحاولة بإصرار وسط صدى واهٍ لسرينة (إسعاف).

أفكــر بضــبابية في جسد جارنا النازف .. حركته وهو يسير بملابسه الأنيقة .. الجسد الصلب اللين في آن .

أوقف عربة أجرة ، أقفز داخلها ، أبحلق في مرآة العربة للطفل الواقف هناك .. والذي راح يختفي .

* * *

تهـــيم حولي رائحة حليبي .. كأنها ستبدأ بذلك البطء السري ثم تغرقني تماماً !!

: ما فيش سبب ياماما ... الدكتور بيقول كده ... غداً سيتوقف.

هل قلت ذلك لأمي حقاً ؟!

أرانـــي هاربـــة مـــن عينـــيها .. ومن شدة رائحتي . أبدل الأسفنجات الملتصـــقة بالحلمتين كما حدث مراراً . أكانت تلك الرائحة تشبه خليطاً من عرق زوجي وطفلي ؟ أفكر الآن أنها تشبه كل الأشياء مجتمعة ولا تتطابق مع شيء واحد . ألهذا هي مقبضة ؟

كأنى هناك أمام ذلك الطفل الواقف فى مرآة العربة ، بجوار أم جمعت بيـــن التســـول والدعـــارة، أفترش الارض في حديقة الفيلا المهجورة وأرضعه .

الشوارع تفر مني كما في أحلامي .

شوارع قديمة أجدني فيها لتختفي فجأة وصوت مجهول يخبرني أن علىّ أن أحفـــظ في ذاكرتي شيئاً ما ، وأن الأمكنة لن يبقي منها سوي روائح .. ستظل هائمة حول هواء بعيد .

الأبـــواب المرتـــبكة والتي لم تفضِ إلينا .. باب غرفتي .. رائحة الماء الأكـــثر عنفاً ، المتسرب من (حمام أبي الأخير) إلىّ من الغرفة العائلية .. التي كانت خلف بابي مسرحاً للعائلة في مساءات بعيدة .

– أنت تصنعين من غرفتنا نسخة أخرى من غرفتك القديمة!!
– يمكنك أن تبدلها .
– .. أنتِ زوجتي على كل حال .
فـــي النهار يفتش في أشيائي وفي الليل ينام ملتصقاً بطفلنا في حجرته . يقــول كلمات حول الجغرافيا التي لم تعد تكفي لتجمعنا . نضحك خلف ضحكات طفلنا .. ونؤجل الأسئلة . الاسئلة !!

– تشكين في كل شيء إلا العجوز !!
– أحب أشجارها .
– تحبين ما تصنعيه فوق وجهها بالمساحيق .
– كنت تفاخر بأنك تبيعها تلك المساحيق .
– ولكنك مفتونة بمساحيق العجائز ..أليس هذا غريباً ؟!
– عملت مكياجاً لممثلين صغار .
– نعم .. خاصة الذين يتمتعون بقبح لا حل له .
– القبح .. أللى .. أللى... !!

نستحضـــر (المغنـــية العجـــوز) من أجل مرح أوفر ، بداية بحديقتها ومســـاحيقها التـــي أضعها فوق وجهها كل أسبوع .. نهاية بقصتها مع (الأســـتاذ) صـــديقه الأخـــير وغرابتـــي الشهيرة بينهما الصالحة لكل الكلمات.. من الأنثوية نهاية بالطبقة الوسطى يكرر الأستاذ ساخراً:
– نصفك الحر ونصفك المثقف يتبادلان الاتهامات .

ينظر إلى زوجي ضاحكاً .

– انظري إليه .. لا تجعليه يفسدك .

– أهو فاسد ؟

يهمس له زوجي بشيء ما .. أعرف أن الأستاذ بدأ ملحمة سكّره وجموحه وأن حول عينيه الآن يتشتت في أزمنة بعيدة ، ويتهيأ للانقضاض على الآلام .

– كوني نفسك .

– ما كل هذا التأنق... تجلس هنا يا أستاذ وتحكم على العالم من فوق هذه المنضدة !!

– إنها منضدتي عل كل حال .

– إنها مثل أي منضدة .. سيأتي زبون بعد قليل ويجلس هنا أيضا .

يضحكان بصخب وسخرية .. يفلت من ضحكات زوجي شبح سادي .. أتأمل طفلي النائم في عربته تحت النافذة .. ونجوم باهتة بعيدة تكاد تنطفئ .

ينظر الأستاذ في عيني

– أحاول أن أنقذك .

– هنا من هو جدير بالإنقاذ .

أختلس النظرات إلى زوجي .. أفكر أنني لم أعرفه يوما .. أشعر بنفور نحو تأنقه وذوقه السليم .. تظاهره الدائم بالترفع .. حماماته الكثيرة التي يغمر البيت برذاذها .

– حين تعود إلى البيت ستجد عشاءك جاهزاً .. وأنت تمضغه ستفكر كم نجحت في أن تصنع مني زوجة صالحة .

– حقــاً .. أنــتِ زوجة صالحة .. تحبين هذا الدور أكثر من أي شيء آخر .. ألا تحبينه يا زوجتي ؟

– حيــن تــتخلص من عشائك وأنت تقرأ الجريدة .. ستفكر في هموم الوطــن وفن يليق بالضحايا .. ولكن لا تنسي يا صديقي أن لها الفضل في هذا الغائط .

فجر الأستاذ قنبلته كعادته . أضحك طويلاً وأردد :

– نعم أنا صانعة الغائط !!

أهمس في أذنه : فيك حاجة مش مريحة ناحية الستات.

– فيّ أللي .. أللي ...!!

– عندك بروستاتا ؟

* * *

تـــتفجر المرايا الكثيرة المعلقة في صالون العربة.. تضبطني وأنا أحكم أزرار قميصـــي من عند الصدر وصوت القرآن الآتي من المسجل .. يعلو في أذني شيئاً فشيئاً :

– أنا بحب القرآن .. عندي شرايط.. على محمود .. محمد رفعت .

أسمع اختناقات صوتي وأنا أؤكد عليه حبي للقرآن .

خـــيل إلـــيّ أن ذلـــك الصوت لإنسانة أخرى . بوهن تتشكل لوحة في رأسي، لإمرأة فى حاله استرخاء تتحدث فى (الموبايل)، اللوحة كبيرة بمـــا يكفي لاختبائي خلفها ارضع ذلك الطفل وكلمات خافتة تتسلل إليّ من الجانب الآخر ، حول أمه وأحد العابرين ومساومات تتم بينهما.

عين السائق تتفحصنى في المرايا ، لحيته المفرطة في الطول تتحرك مثل دمية مدلاة بالخيوط .

– النهاردة واحدة دبحت جوزها .

– .....

– واحدة طيبة .. جوزها كان نايم .. دبحته ..

واجهتنى عينه في مرآة صغيرة .

قلت برعب: أكثر حتة في الجسم حساسة .

دفعت برأسي خارج النافذة وأنا أسمع دقاتي في أذني.

راحـــت العـــربة تنحرف بشدة وهي تلف الميدان ، ثم توقفت فاصطدم رأســـي بحافة النافذة . التفت إليّ ونظر في عيني بإصرار. قفزت من العربة وأنا أمنحه أكثر مما يستحق من النقود .

أهرول مبتعدة .. أفكر أنه يشبه شابا أحببته يوماً . كان هناك في شرفته طـــوال أعـــوام ثـــم اختفـــي . أعوام نحشو بها روؤسنا لنطلق عليها (رومانسية). يخيل إلى الآن أنني قمت بإخفائه في جزء معتم من عقلى في اللحظة التى كان يجلس فيها بالمقهى ، يرتدى (شورت) قصير .. بأفخاذ بيضاء .. لدنة، تضج بأنوثة ضائعة .

حيـــن ســـمعت شـــهقتي كان يلف الميدان ويتجه إلى الكوبري مسرعاً، ذراعـــه اليســـرى تخرج من النافذة لتشق له طريقاً بين السيارات، كم الجلباب الأبيض يهفهف مع هواء خريفى ثم يختفي .

– فيه حاجة ؟

نظـــرت إلى الشرطي الذي راح يتأملنى .. ذراعي معلقة في الهواء في اتجاه الكوبري وأفخاذ لدنه تحت جلباب أبيض تتمدد في رأسى .

– الراجل ده خد أوراقى !!

– سرقها ؟

تتردد القصيدة مشتتة في عقلى ، احاول أن أقبض عليها

ها أنت ترى .. كيف أننا نعاود اللعبة بالدقة نفسها
لاترتعب....إننا سنألف كل شىء
سنقتل كل شىء

أنظـــر إلى الميدان .. والوجوه التي تعبر بسرعة وضيق .. والكوبري الذي بدا وسط الهواء مثل شيء غير واقعي . أردد : سنقتل كل شيء!!
أسمع صوت (جودة)* داخلي (: ازاى يابت ؟ !)
أتذكره مهرولاً هناك .. يكاد يصطدم بي .

– رايحة فين ؟
– عايزه اصطاد سمك .
– يادى المصيبة .. سمك إيه ؟
ينظر عند حذائي ساهماً ثم إلى طرف السنارة التي أحملها .
– وهي دى بقه اللى هاتجيب السمك !؟
– كانت بتاعة بابا.. لقتها عندى في الكراكيب .
– لسه عندك كراكيب !!
يفتش في وجهي عن شيء ما .. ثم يستطرد جاداً .
– ومعاكي طُعم ؟
– .....
– تعالي .. تعالي .
أهرول لاهثة خلفه .. عند الكوبري يقفز فوق ساتر ترابي ينحدر بهرم من القمامة والرمال إلى النهر .. يشير إليّ لأتبعه .

* جودة خليفة – رسام ومثقف مصرى ... توفي منذ أعوام .

– يا نهار أسود .. أنا كده هاقع .. مش عايزه سمك .
– لا ياختى.. لا هاتقعي ولا حاجة .. أقعدي هنا وأنا هاجيب الطُعم ..
يبتعد صائحا : يا أم رجب .. شوية الشاي .
تهرول إليه امرأة بدينة ترتدي جلبابا من (الكستور) المنقوش ،
يهمس إليها ثم يفترش المنحدر ويبدأ في حفر الطين واستخراج الدود .
– مش عارفة أقعد خالص .. أنت جاي هنا عشان الشاي!!
– أنـــت كده .. الجواز جننك .. أقعدي . كنت هاتشترى الطعم منين يا فالحة... من الجريون ولا الأتيليه؟!
– كنت هاسأل .
– أيش عرفك أنتِ بالأرض والدود .
تأتي السيدة على قهقهاته ومعها علبه من الصفيح وصينية الشاي.
– يالا بقه شويتين الشاي أهم .. لما أشوف هاتصطادي إيه.
يجمع كثيرا من الطُعم ، ويشرب كثيراً من الشاي أيضاً.
نراقب الأسماك وهي تقترب من السنارة معاً .
– خلاص مابقتيش تحبيه ؟
– هـــو مين ؟
– جوزك ياختي .
– .....
– عماله تدورى في الكراكيب .
– أنا حامل .
– بجد يا بت ؟

تهرب سمكة بالطعم وتغوص في الأعماق . يختلس النظرات إليّ .. ثم سريعاً إلى بطنى .

– ماتشربش الشاي إلا وأنت عامل فرح .. صوتك هرب السمكة .

يـــنظر إلـــى وجهي ساهماً ثم يعود إلى رشفاته الصاخبة .. يقول كمن اكتشف أمراً ما :

– أهو الليل هايليل .. والناس هاتفتكرني بعاكسك ومافيش ولا سمكة .. جبنا الدود وشربنا الشاي .

أراقـــب الســـمكة الجديدة .. ويعود لمراقبتي جاداً بطرف عينه ثم يقول صائحاً فجأة : ما تجيبي يابت السنارة شوية .

* * *

صوت الشرطي يبتعد ، أسمع قهقهات (جوده) تتردد بجوارى وهو يحمل بين أصابعه سمكة كبيرة !

(ماتجيبي السنارة يابت) . أسمع شهقتى، أفكر وأنا أنظر إلى الشرطى الواقف بعيدا أنني أشبه الحمير .

لماذا كانت تبتسم لي على هذا النحو من نافذة المطبخ هذا الصباح ؟

* * *

الجارة تمشي بفستانها الواسع .. توقفني متفحصة الأزهار التي أحملها . تخبرني برعشة صوتها .. كم تحب الزهور وأنها لم تعد تشترى سوي (عباد الشمس) .

– عباد الشمس !!

– لما بيفتح .. بيفتح قوى .. البياع سماني بتاعه القرافه .. هو في ناس كثير بتحطه على القبور .

– مش عارفه .

– ريحته غريبه .

– .....

– مش حلوه .. بس فيها حاجه .

– فيها حاجه .. فعلاً .

تتحسس أزهاري وهي تحكى بلهاث عن أشياء مبهمة حول زوجها . أعطـــيها الزهور التي بيدي ، تبهجني إبتسامتها .. تمضى في طريقها إلى البيت بخطوات واسعة .. مرحة .. تلتفت إلى الخلف مرات عديدة لتراني أقف في نهاية الشارع. أكان ذلك في (شم النسيم) ؟

تقول البنت التى تأتي فىآخر الحلم
لن ترتفع هذه الأسقف أكثر من خلاعتنا
أجل لا أعرف غير الصور
والمتورطين في الصور
أجل و .....

* * *

أخمـــن أن زوجي الآن بروبه الناعم وسط أطباق أمه القليلة الخزفية ، يعلـــم طفلي كيف يغلق فمه وهو يمضغ طعامه ، وربما يعيد ذلك عليه بالفرنســـية .. لتبتسم الجدة وهي تسمع حفيدها يرطن بها ، بينما يمضغ زوجي طعامه بتأنٍ وتذوق أبدى وعلاقة سرية بينهما يسربها إلى خلايا جسده .. ذلك الأقرب إلى بنية قوية لمراهق .. يعرف جيداً كيف يتوجها داخـــل (بدـــله) الثلاث.. التي تم اختيارها بعناية وذوق .. يتعامل معها مـــثلما علمـــته أمـــه ، كيف يتعامل مع أثاث بيتهما القليل.. ذى الطابع الرفـــيع ، الـــذى أدار رأس أمـــي لوهلة ، أخذا زوجي وأمه بعدها في الـــتراجع أمام بهاء أمي . وبرغم وجلها وتحرجها المزمن ، كان هناك شـــيء يتســـرب مـــنها ويضعنا في مهب الطبقات . نحن (العزيز قوم ذل!!).

كـــان هـــذا يكفي لإحداث توازن متقن بين علم والدته وفرنسيتها وتعليم أمي المحدود .

قالـــت أمي إن معلمة الفرنسية بخيلة جداً وأنها تلتقط قطعة الجاتوه على طـــريقة (الجواهرجـــي) وأن العرق تحت إبطيها منفر للغاية ومعجون بالأوساخ . حدقت إليّ وقالت:

– أنهم يعلقون صورة خنزير كبير في دورة المياه ..

أيأكلون لحم الخنزير ؟!

– أنه وحيد القرن يا ماما .

– لا .. هو خنزير .

نظرت إلى وجهي وقالت .

– أنتِ تذهبين إلى هناك !!

– .....
– لماذا تملأ بيتها هكذا بصور طليقها ؟
– هو ما زال والده برغم كل شيء .
– نعم .. ولكنهم يتباهون بكونه ضابطاً في الشرطة .
– .....
– كـــان يمكـــن لوالـــدك أن يكون ضابطاً هو أيضاً لقد تعفف عن (البهوية) يوما ما .. رفض أن يدفع فيها مليماً .

تســـبقني خطوات قليلة ، لا تلتفت إليّ .. أفكر أن شيئاً ما قد تسبب في إيذائها . أستحضر صورة الخنزير الذي اخترعته أمي.. الضوء القليل، صـــورة الأب بملابـــس الشرطة ومعرفة أمي بترددى عليهم من قبل . إنها تفكر الآن في حتمية زواجنا مادمت أتردد عليهم. لماذا لم تسألني عن طبيعة علاقتنا ..؟ أتخشاني أم أنه لا يصح؟
أوقفها مرددة: ماما أنا فعلا باروح عندهم
– والله كويس . طبعا في حضور مامته
– يعني
– طيب ... طيب
تهرول أمامي متصلبة وهى تمد وجهها إلى الأمام بكبريائها المعهود ألحق بها .. أفكر أن أتأبط ذراعها .. لكننى أظل أسير بجوارها صامتة . يا إلهي .. ماذا سيحدث في العالم لو تأبطت ذراع أمي ؟!

* * *

- البرجوازية !! من جديد ؟ لا أخفي عليكَ أني اشتقت للكلمة .
- الشمطاء .. الفاتنة يخبأها كل منا مثل سر عزيز عليه..
- كيف لا تتألم على هذا النحو ؟
- أنتِ بلهاء .. كلنا يتألم .
- لكني الآن أمام الموقد أطبخ طعامنا بعمود فقرى منحنٍ.
- لست مسئولاً عن عمودك الفقري .

ألمــح شـــعره اللامع منعكساً فوق زجاج النافذة . في الأسفل كان فكه يتحرك بانتظام ودقة . أتخيل تحركات (اللبان) عبر مطاردة ماهرة بين اللسان والأضراس . أرمي بحبة الطماطم فوق صورته ... هناك .

: الدولة هي المسئولة عن عمودي الفقري .. البطالة والفساد وأمريكا .. حفظـــت ذلـــك جيداً .. ولكن ماذا فعلت أنت وأستاذك ؟ وأنا .. أنا .. أيضا!!

يهـــرول طفلـــنا من غرفته .. يتهامسان .. أتأملهما وهما يمرحان بين الأركان . أدخل إلى غرفتي ، أفكر أن أعيد ترتيبها .. لكني أؤجل ذلك. أدور بين الأركان باحثة عن مكان للأريكة كما فعلت مراراً .

* * *

حين غادرت بيت الأسرة تحولت غرفتي إلى مكان لانتظار المرضى ، ملحقة بغرفة أخرى أتخذتها شقيقتي من أجل الكشف عليهم، اشترت أمي قطعاً جديدة من الأثاث من أجل ذلك ، لم يبق من غرفتي سوى الأريكة التي كانت تخصني أكثر من أي شيء آخر .

تظـــل تطاردنـــي وسط جملة ما أنطقها ، أو تقفز فوق تحركاتي داخل البيت . أراها أمامي، أحدهم يجلس فوقها جامداً .. لا يرى إلا قليلاً مثل معظم المرضى الذين يترددون على العيادة ، وجوه تتبدل فوقها لأناس مجهوليـــن ، وتحت الحشايا ترقد دفاتر قديمة لم أعد أذكر مما تحتويها ســـوى شـــذرات مـــن سنوات بعيدة .. فيما يشبه اليوميات لقلب يملؤه الحماس والأمل .. كان لي يوماً .

كم من الكلمات تبادلناها أنا وأبى ظلت هناك .

كـــان لـــي باب يخصني يطل على الدرج .. بعد وفاة أبى سلمتني أمي المفتاح . قلت سأستعمله فقط في حالات خاصة من أجل تجنب ازعاجها بالطرق على الباب وهي نائمة وحدها .. وهكذا ..

يقتحمنـــي وجـــه (المجـــنونة) وهي تجلس هناك بعد أن صعدت خلفي ودخلت الغرفة.

أتأملها وسط خوفي وريبتي . تحدق فيّ بنوع من الاضطراب والآسي . أفكر أن أطردها .. لكنني لا أستطيع .

: طيب ماتزعليش .

تبتسم وهي تلملم فستانها الأرستقراطي .. القديم والوحيد حول ساقيها . أفكر أنها تخجل مني برغم ما تفعله أمام المارة كل يوم .

أراها وهي تمشي باحثة عن بقايا سيجارة فوق الأرض ، أو وهي واقفة أمـــام الرجال الجالسين في المقهى . ترفع فستانها وتستعرض عورتها بالكـــامل ، ثـــم تبصـــق عليهم وتمضي وسط ضحكات أو كلمات من العطف وسيجارة بكاملها ترفضها بإصرار.

– تشربي معايا سيجارتين .

– .....

تضرب أصابعها في شعرها القصير مرات عديدة بعفوية وأداء رفيع .. ثـــم تسقط يدها في حجرها . أشهر أمامها علبة السجائر وأفكر في أمي ورعبها حين تفاجأ بوجودها .

– سجاير كويسه .

تشير إلى الكتب الكثيرة المتناثرة .. وتهمهم بكلمات مبهمة .

– بتحبي الكتب ؟

– .....

– أقولك أجبلك تاكلي .. عندنا النهاردة بط .

تقوم وتخطف لفافة من العلبة .. يدق قلبي سريعاً .

: بصي .. إحنا أخوات . زي الأخوات

تنظر في عيني وهي تدخن سيجارتها .. كأنها امرأة باريسية .

أفكر أن ألتقط لها صورة .. لكنى أتراجع . الصور.. مالى والصور؟
: أنـــت عايزانى في حاجة .. مش كده ؟ طب خلى العلبة معاكى لأ .. بلاش .
تجلس أمامي .. تنظر إلى الكتب واللوحات والستائر .
: الســـتارة دى بـــتاعة جدتي .. أم بابا .. والشباك ده بيطل على بتاع الـــورد .. بتحبـــي الـــورد ؟ ساعات بشوفك عنده. مش على طول .. ساعات . مرة كنتِ ماشية .
تقـــف حائـــرة .. تـــنظر في وجهي وسط ارتباكي .. ثم تنحني برأسها وتـــنظر عـــند حذائهـــا القديم الواطئ . أحضر ألبوم الصور من فوق المكتـــبة ، أفـــتحه أمامهـــا .. أشـــير إلـــى عائلتي التي قمت كالعادة بتصـــويرها . ثـــم صـــورتي وأنا طفلة وبعض الأصدقاء . تحدق إلى صورة بعينها ، تحتل شجرة كبيرة عمق الصورة ، حيث أقف وحدي .. طفلة صغيرة .. خجولة .. ارتدى (شورت) قصير وألصق كفىّ بجانبىّ مثل جندي . تشير إلى الشجرة .
– الشجرة !!
– بتحبي الشجر ؟
– بتاعتهم .
أحـــاول أن أنـــتزع مـــنها الكلمات دون جدوى وهي تتحسس الشجرة بأصابعها وتصدر همهمات وتميل على الصورة .. جيب فستانها منتفخاً بالهواء . أغافلها وأدس هناك بعض اللفافات .. وقلبي يدق عالياً .
صـــوت أمـــى يتردد من الداخل . أفتح الباب بحذر ، أمضى إليها وأنا أغلقه خلفي . حين عدت لمحت ساقيها يتمددان في ذلك الركن الصغير

المنحشـــر بيـــن الخزانة والحائط وصوت يشبه الأنين يصطدم بأذني . أتجمد مكاني . أنظر برأس خاوٍ إلى هزهزات النعلين المتآكلين لحذائها الواطـــيء حـــتى هدأت . تقترب مني في خفة أدهشتني .. ثم ابتسمت ليتسلل منها امرأة أخرى ، خيل إليّ أنني عرفتها طويلاً .

أحكـــي أشياءً عن الأشجار والذكريات. تمضي دون كلمة وتترك الباب مفـــتوحاً وآثار الجسد الذى تمدد هنا منعزلا .. مثقلا بشهوته يبدد قوتى ويربكنى طوال أيام .

فـــى المســـاء أنجـــح فـــى أن أطرد صورتها من رأسى ، لكن النعلين المتآكلين ظلا يتحركان في الغرفة فيما يشبه الآسى .

من أين تجيء هذه السيدة وأين تختفي ؟ يطاردني وجهها المتصلب على يقظة لا تلين .. أي جنون ؟!

* * *

– أنت تستقبلين ضيوفاً لا نعرفهم من هذا الباب !!

– لاشيء تغير يا أمي بعد وفاة أبى .. فقط أنني أدخن الآن على راحتي ..

أمد يدي بالمفتاح لتأخذه .. تنظر إليه في حيرة ثم تقول:

– خليه .. أهو ينفع .

تملـــس بأصـــابعها على شعرها المضموم إلى الخلف بصرامة وعيون زائغة . تقول بخفوت

: بس مش لازم الناس تعرف .

أقف عند تليفون في الطريق ، أدير رقماً ، يقطع الصوت الآلي الاتصال علـــيّ بأن هذا الرقم (مرفوع من الخدمة) ، الشاب الذي خلفي يخبرني أن الأرقام المكونة من ستة فقط قد تبدلت منذ وقت طويل

– ولكن هذا رقم بيتي !!

– كيف ؟

أبحلق في الشاب ورأسي يؤلمني . تختفي ملامحه .

– حاسة بحاجة .

– دا رقم بيتي ... بيت ماما .

يتأملني للحظة قصيرة ثم يمضى . أفتح حقيبتي ، أخرج دفتر التليفونات ، أمـــرر عيني على الأرقام سريعاً ويخيل إليّ أن ثديي ينتفخ وتدب فيه ســـخونة قديمـــة مازالت هناك .. حيث تختلط الراحة بالوحشة ، تاركة جسدي لعصف الوعاء الذي تحول إلى مصدر للغذاء .

– نعم كل شيء يؤلمني وأنت أيضاً .

– الألم الثابت !!

– الثابت .. الثابت .

– كيف تلبين احتياجات جسدك أيتها القديسة ؟

ينظر زوجي إلى جسدي بذلك الحياد مثلما ينظر إلى الأشياء ، ينهل من كـــل مـــا تقـــع عليه يده باحتراف .. دون أن يترك أثراً لذلك . الحياد الفاسق .. الحياد.. الـــ....

الحياد الممدد فى الصندوق
القطة العمياء
ال....

يدب في ذاكرتي رقم أمي .. أدرك أن الرقم الذي أدرته منذ لحظات هو رقمها القديم . أدير الرقم الحالي ، أسمع صوت (الأنسر ماشين).
: ماما .. أنا هاسيب البيت .. أنت جنب التليفون .. ماما..!!

أفكار حول أسباب خروجي هذا اليوم تهيم في رأسي .. مشاريع مؤجلة أنساها في مكان ما .. أبدلها لأنساها من جديد .
وجه العسكرى في الصورة ، يبتسم لي . يردد (: يعنى لازم). ينطقها بإيمـــاءة خاصة من رأسه ونظرة في العين متواطئة .. مرحة (: لازم يعـــنى) !! أراه مهـــرولاً في طرقات طويلة .. يختفى. صوت لحبيب قديم يردد (: مرحباً). مرحباً !!

أشـــعر بسقوط كف الطفل الواقف هناك في كفي .. تقبضني طراوته ، أبحلـــق فـــي الأفـــيش الرديء أمامي أعلي السينما . البطل يلتهم كتف الـــبطلة، أحاول أن أستعيد ذلك المقطع من إحدى قصائدى التي سيلقيها الـــبطل فـــي لحظـــة مـــا . أتذكر الممثل الشاب صاحب اقتراح وضع قصيدتي هناك، اصطدامه بي ذات ليلة بأحد المنحنيات وهو يخفي شيئاً بوجهه واضعاً كفه فوق جبهته. أكتشفت وسط ارتباكه أنه ضحي بجزء

مــن حاجبيه وأنتزعت تماماً تلك الوصلة التي كانت تصلهما معاً.. من أجل دور لا بأس به، عرفت فيما بعد أنه تقلص حتى صار سطرين في الفــيلم . كان الضوء المهاجم من شارع آخر يفضح صورته الجديدة . الحاجبان المتصلان فيما قبل كانا يخبآن شيئاً ما جوهرياً ، أصبح الوجه عاريــاً ، ورأيت رقته جبناً. وتحت ضوء فلورسنتي توقفت عيني عند استقامة حاجبيه الجديدة ونحافتهما . وسمحت لنفسي أن أكرهه.

في الأستديو.. ذات مساء .. كان وحيداً .. قال لي أن عليه أن ينام فقط فوق الفراش .. ثم يستيقظ ليقول للبطلة جملة ما ، وأنه لا داعي لوضع المكــياج فوق وجهه. كان البطل يتحرك بزهو أمامنا. قررت أن أضع المساحيق فوق وجه الشاب المغمور .. بل أنني ربما جعلته يبدو أجمل كثيراً من البطل . كانت كلماتي عن موهبته وعذوبة وجهه وأشياء حول الشجاعة والفن كفيلة بأن تشد من همته .. بل أنه كان ينشر حوله وهو يــتحرك ويــنطق جملته.. نوعاً خاص من الألق والسحر . حين راحو ينتقلون إلى مشهد آخر.. أظلمت الغرفة بفراشها الفارغ الذى أستيقظ فيه من قبل.

ما الذي دفعني للتسلل تحت الأغطية في الظلام وأنا أتحسس آثار الشاب الــبائس ، أحتضن إنكساره والألق الذي أنتزعته في غفلة منه. في تلك اللــيلة غفــوت كالعادة لدقائق .. عندما استيقظت امتلأت بالطفلة التى كنــتها .. والــتى فكرت بغموض أن هناك واقعاً بعينه يتحرك بين الأسود والأبــيض بدرجاتهمــا، حــي (الزمالك) هو بالضرورة مكون من الأبيض

والأســـود.. بـــل أنني فزعت حين هاجمني وجه (فاتن حمامه) في الأستديو بمســـاحيقها الملونـــة. (فاتـــن حمامـــه) بنفسها ترتدي ملابس فلاحة مصرية وتـــتحدث وقت الراحة في التليفون بالفرنسية!! كيف سقطت بكل هذا العنفوان من الأبيض والأسود؟

هـــل كنت دون أن أدرى .. طوال عملي بالمكياج ، أبحث عن صيغ تحقق لي روح الأبيض والأسود فوق الوجوه القليلة التي تعاملت معها ؟!

هكذا تلاحقني الذكريات .. المشاهد الخاصة بأسرتي .. الأكثر حميمية . أبي وهو يتحرك بيننا ، ثم وجه أمي الجميل .. بياضها الشفاف يضفي بـــريقاً ساحراً ، جولاتنا في المعرض والسيرك .. نزهاتنا النيلية .. ثم الأســـتاد واحتفال قومي يصعد فيه ذلك (المارد) من بين الحشود ليحتل الرقعة الأكثر قوة ، كتل من البشر تضج بالجنون والحماس غارقة في الـــرمادي .. تحاول الوصول إلى المارد . أنفجر في البكاء والفزع .. وصوت أبى يردد :

– ماتخافيش .. دا جمال عبد الناصر .

متـــي أدركت أن ما أدخلته إلى الأبيض والأسود كان أكثر المناطق في الروح تحويراً.

* * *

الظلام وسكون الظهيرة ، يتمددان في قاعة العرض ، أستسلم لهما وأنا ملقـــاة هـــناك .. في نهاية الصف .. منذ متي وأنا أفعل ذلك ؟ من أي مـــنطقة في الروح تهاجمني تلك الريبة ، كأن من يسير أو يجلس خلفي

سـيفاجئني بخنجر مغروز في ظهري بالفعل؟! (: في أيه ما بتخافيش مـنه !! حـتى جسـمك زى ما يكون موش بتاعك !! وانا كأنى مش جوزك)

يقفـز إلـى رأسى العسكرى .. صاحب الصورة .. مهرولاً في صالة المطار، يخبرنى أننى أستطيع أن أكتب له ورقة .

: يعنى لازم ؟

أدس في يده نقوداً .

– أصل ممنوع .. هو بسبوره أيه ؟

– أردنى .. تونسى .. مش عارفه .. يمكن حاجة ثانية .

– يعنى منين ؟

– فلسطينى .

– يعنى من فلسطين .

– . . . . . .

يمضى .. ثم يعود بورقة منه . أقرأها أعرف على نحو غامض أنه لا يستطيع الخروج من هناك !! أكان ذلك الفندق أم إحدى غرف التحقيقات بالمطار؟

تمضـى أوقـات ، نتـبادل فـيها الرسائل ... و(: خد دول كمان) و(: مرحباً) في بداية كل ورقة منه .

تستعرض الكاميرا جسد البطل ، أصوات تتكسر وصرخات .. ثم رجل وحيد يجلس أمامي ، يهتز بغموض.

أنــتقل من مقعد إلى آخر ، أرى جانباً من وجهه وقد سقط عليه ضوء مفاجئ من الشاشة .. ثم يغرقه الظلام .

أجلــس هــناك لينطق البطل بداية القصيدة ، وهو يفرك بأصابعه شعر البطلة الناري .

"هناك وحدها .. وموتها الأخير" .

ينقطع الصوت فجأة ، تتحرك شفاه البطل لتكمل القصيدة دون صوت ، تتقلب البطلة في الفراش .. حزينة .. شبقة ... تتحرك شفتاها فيما يشبه الــتأوهات .. لــتمزق الرقابة قصيدتي من أجل الانقضاض على فحيح البطلة.

أتــرك المقعد ، ويخيل إليّ أنني لم أكتب هذه القصيدة أبداً ، أسير مثقلة بالوجه الذى كان أمامي وشبهة حزن وعادة سرية فوقه . أراجع أشيائي فــي الحقيــبة ، أسترجع مشاريعي المؤجلة . مكالمة خارجية لبلد بعيد يتــبعها سفر طويل .. العمل وبداية استقلال حقيقي .. أو التخلص من فكــرة الســفر. مطالبة أمي بحقي في ميراث سيظل ملتبساً إلى الأبد. الذهــاب إلــى طبيب يساعدني على استرداد جسدي المهدر بين موته الغامض .. ومطبخي هناك .. و !!

هناك وحدها

وموتها الأخير .. وحدها وحدها ....

وموتها الأخير .. وموتها .. وموتها

تسب الاصدقاء

وحقائق رخيصة تنطفىء مثل (أورجازم)

هناك تموت كما ينبغي .. عارية تماما

تـــتقافز الكلمـــة في رأسي : عارية ... عارية ... عار..... وحدها... موتها....

أفكـــر فـــي المـــرور على مطربة الأوبرا العجوز ، لأخبرها بقراري التوقف عن عمل المكياج لها يوم الأحد من كل أسبوع .
: إلى أين تذهب بمساحيقها المضحكة ؟
يلقيها زوجي علىَ بدماثته المعهودة .. ثم يختفي .

كـــان يبيعها مساحيقه ، التي أصبحت مضحكة بفعل أصابعي حين كان (البائع اللطيف المثقف) لإحدى منتجات التجميل .

في حجرة المكياج .. وسط المرايا ، راح يفتح لي باباً إلى رأسه. أحدثه عن الوجوه التي أبدلها وأنا أضع اللمسات الأخيرة للمغنية العجوز.. من أجـــل حفـــل للرواد . حين كان صوتها يتردد بين حنايا المسرح رأيت وجهه في تلك اللحظات يتبدل في المرايا، كان اللون الداكن أعلى جانبي أنفه .. يحرضني علي إزالته بالمكياج .

- ألم تضع مكياجا في حياتك ؟
- أبداً !!
- أعرف رجالاً يغادرون بيوتهم وهم يضعون المكياج.
- هؤلاء !!
- أعرف واحداً ليس من الشواذ يفعل ذلك .

راح ينظر في عيني .. قلت

- أريد أن أضع لك مكياجاً .
- أنا !!
- نعم .

راح يضحك مبحلقاً في المرآة ، واستطعت أن أرى في نظرة سريعة كيف كان يجاهد في إخفاء رغبته الجامحه في النظر إلى مؤخرتي المتكورة داخل (الجينز) .

ولم أضع له المكياج سوي مرة واحدة .. كان فيها مستغرقاً في النوم .. ولم يعلم بذلك أبداً .

في تلك الليلة حين كنت أحاول أن أجعل وجهه كما كنت أراه قديماً أكثر طيبة وألفة .. اكتشفت وسط لهو أصابعي .. وبغموض .. تلك الأنوثة الضائعة والتي يخبؤها كل الرجال في جزء ما من روحهم . كان الوجه يرق وينسجم في غفلة منه . كيف استطعت أن أنتزع تلك اللحظة العابرة من الكمال ؟! التوحد المثالي بين الذكر والأنثي .

* * *

أدخـــل إلى السنترال ، أطلب من الموظف أحد الكروت الحديثة ، أسأله عـــن كيفية استعمالها، يكتب لي رقم الكود .. أنقده ثلاثين جنيها . أضع الكـــارت داخـــل الجهـــاز ، أديـــر الرقم ، تأتيني الرسالة المسجلة أن (التلـــيفون المتحرك المطلوب متوقف عن العمل) أستفسر من الموظف عن معني ذلك ، ينصحني أن أكرر المحاولة في وقت آخر . أعيد إليه الكارت أطلب نقودي .

: ماينفعش .. خليه معاكي .. مفتوح لأي وقت .

أمضى إلى الباب ، ينادى على .

: أبعديه عن العرق والبلاستيك .. وأي مفاتيح .. أصله ممغنط

أضـــعه في جيب قميصي العلوي .. تقع عيني على أحد الأزرار فوق الجيب

- في هنا زرار بلاستيك !!

- حطيه في الشنطة .

- مليانه مفاتيح وحاجات ثانية .. و !!

- في أي حتة .

- أنا عايزه الفلوس .

رأيته فاغراً فمه ، أخذت الكارت مهرولة إلى الخارج.

* * *

لماذا أسير بهذه السرعة ؟ أدرك فجأة أن العرق الذي بيدي سيفسد الكارت. أعـــيده إلى جيبي العلوي . أسير من جديد لا أدرى إلى أين . ترعبني فكرة العودة إلى البيت ، أشم رائحة دماء .. تلك الأكثر سرية ووحشة .
دقـــات لاهـــثة تخـــبط فـــي أذني .. أفكر بفزع أن ذلك بسبب الكارت الموضـــوع فـــوق القلـــب .. اتكئ بظهري إلى الحائط وأنا أنتزعه من الجيـــب ، أعـــيده إلـــى قبضتي محاولة أن أترك له فتحة صغيرة بين الأصابع تسمح له بدخول الهواء .
في إحدى الكبائن .. أدير رقم أمي من جديد ، أسجل على جهاز الأنسر تلـــك الأشياء التي سوف...!! أفعلها .. أفعلها .. أفعلها سوف. أنصت إلى صوتي .. ثم أعدو مبتعدة . أختفي في إحدى البنايات القديمة .

كان المدخل ينضح بالظلال والهواء .. أسمع صوت هذياني مثل شيء لا يخصني

عارية ... حقائق مثل (أورجازم)
(أورجازم) ينطفىء مثل الحقائق

.. يأتينـــي الطفـــل الواقـــف هناك في مرآة العربة ، تنتشر رائحته في روحي .. وتشبه الحلاوة الطحينية . أكان صدره يتسع لحميمية مفقودة تســـربت من جسد طفلي ذات يوم ؟ عن أي شيء أبحث في الطين وأنا

أغرز أصابعي فيه كلما مررت بأرض مبتلة ؟ أى رائحة أتشممها وأنا أشيح بوجهي بعيدا عن العيون ؟ أى عفن أنشطه بين أصابع قدمي كلما رقـــدت هناك تحت الفراش بعد تلصص مزمن من خلف الأبواب على مشاجرات أبي وأمي ؟

تـــتحرك الوجـــوه فـــي الخـــارج مثل أشجار العجوز الوارفة بحديقتها المهملة، تتمدد داخلي فيما يشبه الحلم . تختلط الوجوه.
(جوده) ببيجامته جالساً بين الأشجار .. بعد تسلله من المستشفي، تهم قبضته بضرب ظهر "الأستاذ" .. ورائحة صاخبة للشاى . وجه زوجي متظاهرا بالشوق وهو ينحنى نحو صدري ... ثم العجوز .

كانت تفتح لي الباب ، تحتضنني أبتسامتها العريضة لتكشف عن أسنانها المصـــنوعة بعـــناية . ومـــن تحـــت بشـــرتها يشع ذلك الضوء ليقهر شيخوختها.
حيـــن أخـــذ الوهن يضرب في الجسد ويدب الاصفرار في الوجه كانت تســـبقني بخطوات إلى الداخل .. أتظاهر بالنظر بعيداً وتواطؤ بيننا في أن نضـــع (الـــبودرة) أولا وبســـرعة . بعدها .. نستطيع أن نتبادل النظرات .
الآن تفـــتح لـــي الـــباب ، فوق وجهها خفيف من البودرة يكفي لإخفاء علامـــات المـــوت الوشيك .. لأتظاهر بأنني لم أكتشفها. أضع البودرة فوقها ، وأنا أتلهف للنظر إلى عينيها .

أراها بعدها من نافذة مرتفعة وهي تركع ببطء وحذر بمكياجها الملتبس تلملم الجوافة الساقطة أسفل الشجيرات في الحديقة المهملة .
كانـــت تشاركني الثمار حين أفزعتني أسنانها المكتملة ، القوية بإفراط وســـط الوجـــه الشـــبحي . ذكرنـــي ذلك بابتسامة (الملك حسين) قوية الأسنان، التي تكور عليها الموت .
– أنا بس أللى بتعملي لها ماكياج دلوقتي
– .....
– أقول لك .. موش عارفه أستغنى عن إيدك .. بتخليني زي زمان ... إزاى ده بيحصل ؟

الـــبريق الخـــاطف يـــتردد مـــن عينيها ، أخمن أنها تريد الحديث عن (الأســـتاذ) . أبـــادر كالعـــادة بكلمات عنه. تتوقف نظراتها عند إحدى اللوحـــات الـــبديعة المعلقة هناك .. حيث الحوائط تنضح بالفن الجميل المهـــداة والمشتراة ، فوق البيانو صورتها الشهيرة التي أذابت العقول ، الـــنظرة الثاقـــبة المشـــعة ، كأنهـــا تـــنظر إلـــى عمـــق الأشياء كلها دفعـــة واحـــدة . حـــول الصـــورة يلـــتف (الوسام) الذى منحه لها (جمال عبد الناصر).
قالت ذات ليلة ، إن الأستاذ وقف بينها ، وبين حبها لعبد الناصر.
: كيف غفرت له كراهيته لعبد الناصر ، ولم يغفر لي حبي له؟ صدقيني .. كلهم كانوا من نوع (لا بحبك ولا بقدر على بعدك) .
تحكى أن الأســـتاذ كان يردد معهم أن الأوبرا فن برجوازي
– كان يأتي إلى كل الحفلات .. أين هم الآن ؟

– هو لم يتغير .
– على الأقل دعينا نظن ذلك .
– لابد أن يبقى هناك .. كما هو.
– في القبو !!
تتذكر والدها .. والذي كان يعمل مستشاراً مالياً بإحدى المؤسسات التي ترعرعت في ظل القطاع العام .. واعتماد بعض من ركبوا أمواج الانفتاح وأقاموا مشروعاتهم الكبرى على أنقاض الأحلام القديمة .
: أتدرين ماذا كان يعمل آخر أيامه ؟ كان يؤلف النكات ويبيعها للمقصودين بها .. كانوا يشترونها منه خوفا عليها من الأنتشار . يدفعون له كثيرا من أجل بضع كلمات ويعود ويحور فيها ويبيعها من جديد . هو من علمني أن الأوبرا وصوت الشيخ (محمد رفعت) بينهما سر مشترك .. هذا الفاسد كان له ذوق رائع .

* * *

أتأمل الذين يعبرون في الخارج هامدة فوق الدرج . أفكر بغرابة.. في أشياء حول العلاقة بين طريقة السير والأخلاق . إيقاع الأطراف .. الأفخاذ .. تقاسيم الجسد .. الأخلاق !!
يخيل إلى أنها مثل (النكات) لا يهم ما تحويها بقدر ما يهم طريقة أدائها.

هاأنـــا أهـــذي مـــثل حيوان ضائع . أسمع بكاء جارتى وسط صرخات زوجهـــا وتخبط الأواني ببعضها . صوت تدفق المياه .. وتفجر رائحة المنظفات . شيء داخلي يردد (: أنت الأصابع المضحكة) .

بودرة للموت وأخرى للحياة
إنى هناك بينهما أردد الأغاني المزمنة
وأضحك فوق جسر معتم

أدخل إلى نعاس واه ، أحتضن حقيبتي فوق ركبتي . امتلأ بوجهه البعيد .. مردداً (: مرحباً) .
– فلسطينى .
– يعنى بسبوره فلسطينى .
يختفى شيئا فشيئا .

* * *

كأني جسد يتسع ، أعرف بطريقة ما أنى ممتلئة بعين جميلة لا تشبه أي عيـــن أخـــرى .. أحاول أن أختبىء في مكان ما .. لكن (مدام نظيفة)* تأتي بقطنتها الشائكة تشهرها أمامي .

* (مـــدام نظـــيفة) صـــاحبة الاعـــلان الشهير عن المنظفات أشهر كلماتها (القطنة مابتكذبش) .

أرتجف من أنها ستكتشف سر العين التي أحملها داخلي. تستفحل القطنه لتملأ المكـــان ، أغـــرق في القطن ورائحة المنظفات تتفجر . تلك التي أعرف أنها تأتي من (نظارة) مدام نظيفة . أسمع صوتاً يردد في إيقاع أوبرالى لا يكشف عن جنس صاحبه ، أن عليهن أن يغلقن كل فتحاتهن بالقطن !!
أتصبب عرقاً من فرط الرعب . أدرك أن مدام (نظيفة) تقوم الآن بذلك وهي تتنقـــل بينهن . أراهن يطـــرن فوقى مثـــل لوحـــة من لوحات (شـــاجال) . أفكـــر أن على أن أختبىء في لوحة بعينها . فجأة لم أعد أخشى شيئاً ، كأني أرتشف العين التي بداخلي .. لأثبتها هناك في بؤرة الروح .

أفتح عيني على صوت معدني يصطدم بأذني ، أعرف وأنا نصف غائبة أنه صوت احتكاك أدوات الجراحة ببعضها في غرفة العمليات ، وشيء بعـــيد يحذرنـــي مـــن فقـــدان العين ونظراتها المكتملة . أشعر بخفتي المفاجأة.. أهيم خلف العين باحثة عن الأثر !!

* * *

كنـــت أتمدد هناك ، تحت الفلورسنت القاتل .. شبه ميتة ، وليلة طويلة من الألم . أتذكر لحظات المحاولات الفاشلة لإخراج طفلي من رحمي.. ثـــم ســـاقي المنفرجتين بقسوة ، أهيم لاهثة باحثة عن وجه أحتمي به ،

أتشبث بذاكرة واهية .. أمي .. شقيقتي .. الأصدقاء .. يفرون جميعهم دفعة واحدة

لم يكن هناك سوي ذلك الرجل ذا الشارب المفرط في الطول ، تعبث أصابعه داخـــل أنفـــه طـــوال صرخاتي ، وفكرة مرعبة تتفتت في جسدي .. أن تلك الأنف اللاهية .. هي آخر صورة لي في الحياة !!

لكن العين الجميلة تقفز على كل شيء ، تنظر طويلا في عيني، تخبرني أننـــي ســـأرتاح ، وأنهـــم بعـــد فشل محاولاتي .. يجهزون لي (عملية قيصرية) .

– قيصرية جايه من قيصر ؟!

– مش عارف؟

– القيصر ابن الـــ ... ألـــ .. ألـــ... !!

– استريحي .

– كل اللي أعرفهم بيختفوا !

– كلهم ؟

أغيـــب لحظات لا أدرى مداها وفكرة بعيدة تضغط فوق رأسي .. بأن علي أن أتكتم أسراري وألا أدعهم ينتهكون عقلي في البنج .. أحاول أن أخبيء شيئا ما تحت الوسادة !! أفكر بغموض في معنى الوسادة ، أنسي تماماً ما هي بالضبط ، أعرف أنني مت ، وأن ذلك هو الموت . ذاكرة محفوفـــة بشـــتات المعانـــي .. بعدهـــا تتدفق الأفكار في رأسي ، أمي وأحاديثنا المؤجلة دوماً ، أحضانها المفقودة ، وجه طفلي الذي سيفاجئني بوجوه أخرى . أفكر بلهاث كيف أطبع فوق وجهه، قبل أن يترك رحمي صورة من أحبهم ، صوت بعيد يحثني على الإسراع في وضع صورته

، وأنها الفرصة الأخيرة لي ، أحاول تذكر من أحبهم.. أردد شتات من أبياتي لاهثة

دع الهواء يرفرف فوق الجثث
كالعادة نسيت الورود ....
أين خبأت الور... !!
الهواء الهواء .....

أغرق في الرمادي!!
أفتح عيني علي النظرة الجميلة .
– لما بنتألم بيكون شكلنا مرعب !!
– أبدا .. شكلك حلو .. زي أمي .. أمي .
– خليك باصص لي .. البنج .. أزرق كثير .. سما ولا .. !!

* * *

حين أفقت في غرفتي بالمستشفي لم أعثر لصاحب العين علي أثر. خيل إليّ أنني اخترعته بما تبقي لي من أنفاس !!
– أنت لا تنظر في عينى .
– .....

– وفـــي الفـــراش أيضـــاً.. نعم.. أنك تسرقني في الفراش وفي النهار تتأملني مثل شيء لا يخصك .

هل كن هناك .. هؤلاء النساء .. متلبسات بذاكرتهن فوق الرصيف؟

ظـــلال الـــدرج الكثيفة تحمل أمي إلىّ . لماذا لم أخبرها حتى الآن أني مرضـــت بالســـكر مثلها أيضا ؟ أكنت أحاول أن أزيح أي ظل للتشابه بيننا؟

* * *

أســير علــي مهــل .. وخــواء في الرأس تدربت عليه بتلك الأشياء الاعتــيادية والمضــحكة .. مراقبتي من غرفتي لحركة ساقيّ زوجي ، نائماً بجوار طفلي بسنواته القليلة في الغرفة الأخرى .. أثاث البيت الذي أحــرص علــى تلمــيعه لالتقاط صور عائلية .. مراجعة جينات نساء العائلة.. وصوت يقول ورجالها !!

أدخــل إلــى المقهــى فــي الميدان ، أطلب قهوة وماءً كثيراً ، أدخن بشــراهة.. أعتذر للنادل عن أشياء لم أرتكبها . أضع (النظارة) وأحث نفســي على البكاء . أستحضر موت أبي في صباح باهر .. العصافير الميتة بين ثنايا شيش غرفتي وزجاج النافذة .. جسدي الخائب .
أشير إلى النادل ، أخبره أن أوراقي ضاعت في عربة أجرة .
– البطاقة ؟
– .....
أنفجــر فــي الضحك .. يحدق إليّ .. لا أستطيع التوقف. يهرول إلى جهــاز التليفزيون الموضوع عالياً. نشرة الأخبار تلقي بصور شتي عن الانتفاضــة الفلســطينية .. أم فلاحــة يفجر الإسرائيليون بيتها ، شاب يختــبىء خلف المنزل ثم يهرول إليها ، يمسكون به ويجرجونه من كل شــبر فــي جســده . تتكتم الأم انهيارها فاغرة الفم عينها تتسع وتملأ الوجــه.. عــندها .. يشــير إليها رجل ما لكنها لا تفهم .. لا نرى من الــرجل ســوي الأصــبعين علامة النصر. تقلب الأم يدها تحت عينها ذاهلة.. جسدها كله يرتجف . حين يمضون بالشاب داخل عربة مسرعة

تتصارع صرخاتها وهي ترفع الإصبعين المرتجفين -كما أمرتها اليد- أمام الكاميرا .

يفاجئنـــي وجهي في إحدي المظاهرات . عيني معلقة بدائرة مفرغة من الشـــعر لـــرأس إحداهن ، أكاد ألتصق بظهرها ، أردد شتائمي الخاصة بمـــلأ حنجرتي خروجاً عمن يتردد من كلمات ، ثم انسحابي وشعوري بالـــيأس والخجل وأشياء حول صاحبة تلك الرأس تبدد ما تبقي لي من قـــوة . صـــمودها أمـــام الفقر والتجاهل والمرض ، لتظل تلك الدائرة تضغط فوق رأسى طويلاً .

أتذكـــر الكـــارت داخل قبضتي ، أعرضه للهواء .. تتعالى الصرخات الحماسية لمباراة هذا اليوم الهامة .. وبحة أنثوية ذات إيقاع واحد تذوب فـــي أذنـــي ... التفت .. تهيم عيني حول ذلك الوجه بإرهاقه المزمن ، أحدق إلى الشفتين اللتين تتحركان بآلية .. أفكر أن أوقفهما .. لكني أظل هامدة وهي تلقي بإيقاعها بيننا . خيل إلى أنها هناك .. هكذا.. منذ زمن طويل تسقط كلماتها وحدها إلى الأبد !!

أراها وهي تشعل سيجارة من علبتي ..
- عرفت بعد كده هما عايزين إيه .. روحوا .. فاكره ؟ ما أنتِ عارفة.

أحـــاول تذكـــرها وســـط إحساس بالغثيان وهي ترفع الكاب التركي ، المرصع بالخرز إلى الخلف .

– رحت وشفت .

– .....

– السفارة بتاعتهم .. الضباط المصريين عارفني هناك .

– .....

– ما أنتِ عارفة .

تأملت وجهي طويلا ثم قالت :

– لازم تمشي كثير وتقللي السجائر .

أفكـــر أنهـــا علـــى الأقل تعرف أنى أدخن كثيرا.. اتكئ عليها أتشمم رائحتها التي تشبه الحلبة .

– عايزه ميه كثير .

تفرغ لى كوباً من الماء تسقيني .. أراقب وجهها الساذج والنزق في آن. تتملكنـــي رغـــبة فـــي عمل مكياج لها. لو أنني رفعت الحاجبين عالياً وبشـــكل أكـــثر اســـتقامة .. ستبدو كمن بها مَس من جنون ... جنون المنهكات المُهمَلات .

تقـــول أشياء حول ذهابها إلى السفارة الإسرائيلية .. وتسجيل ما رأت.. والخبرة .. و .. !!

أتذكـــر الكـــارت الذى كانت تطحنه بمرفقها ، أزيح يدها ، أهوى عليه وســـط اســـتطرادها المشـــوش عن الثقافة والفلسفة.. ثم راحت تضحك طويلاً .

: مين أللى قال لك تعملى كده ؟

فكـــرت أن أخـــبرها أنى لا أعرفها ، لكننى ظللت صامتة أراقبها وهى تحرك حمالة صدرها من فوق الفستان باعتيادية.
أفتح حقيبتى . أخرج نوتة التليفونات .. أبحلق فى الأرقام ، أشهق فجأة وأنـــا أمـــرر عيـــنى علـــى أســـماء من ماتوا من الأصدقاء .. أحاول استحضار وجوههم.. لكنها تفر جميعها. أسمع صوتاً بعيداً لأحدهم يردد : خراء!!

* * *

يتســـلل إلىّ الطفل الواقف في مرآة العربة عاجزاً عن النطق . أسترجع بوهـــن ترددى في استمرار رضاعته ونسيانه إلى الأبد. أتذكر الحلاوة الطحينية التى نصحتنى بها أمه لزيادة اللبن فى ثديى.. وترهلى.. الذى تســليت كثــيراً بنظرات زوجى إليه .. وذلك النداء السرى الذى كان يمزقنى من فرط الألم والسخونة .

– عمال ينادى علىَّ كل شوية.. أنا بعرف .. صدرى هايتفرتك.

– ما هو كده .. كل ما يعوز يرضع يقرصه لك.. حتى لو أنت فى آخر البلاد .

تنظر إليه : أنا عارفه ما بيكبرش ليه !!

– مابيكبرش ؟!

– بتهيألى .

يمزقنى ذلك الإحساس الأبدى بالذنب . الحساب الذى لا ينتهى .

: بس أنا برضعه كويس .

نـــبحلق معاً فى ذهول إلى وجهه الهادئ وعينه المحدقة دائماً إلى شيء ما.. فى أقصى اليمين أو اليسار .

– بس بيشوف .

– دا كله عيون .

قالت (أروى)* أيضاً عن طفلى (: كله عيون)

---

* أروى صالح – مثقفة مصرية .. جمعت تجربتها بين السياسة والثقافة.. لها كتابات هامة أنهت حياتها بالانتحار منذ أعوام .

اختلست نظرة سريعة إلى جسدى ... وأنا أحكي عن محاولاتي الفاشلة في رضاعته ... وعدم تمكني من ضبط ثديي في وضع مريح .

– أريد أن أراكِ وأنتِ تفعلين

– .....

– تخجلين منى ؟

تعلــق (التعويذة) التى أنت بها فوق باب الحجرة. كانت على هيئة كف تــتدلى مــنه خرزات زرقاء. مازالت هناك حتى الآن. تلمحنى بطرف عيــنها وأنا أجهز نفسى للرضاعة. ألقم طفلى الجائع ثديى وأنا أختلس الــنظرات إلــيها بارتباك. أدرك للمرة الأولى إننى لم أضع لها مكياجاً طوال صداقتنا.

يسيطر على فجأة رغبة فى عمل مكياج لها يظهر ذلك الألق القديم الذى كــان بروحها .. والذى سمعت عنه من أصدقاء جيلها . أختلس نظرة إلــى أنفهــا والكسرات الخفيفة التى تنثنى بقوة على جانبى عينيها حين تضحك.

تفلت الحلمة من فمه ، أعيدها إليه .

– دوقته على طرف لسانى .

– دوقتى اللبن ؟!

– .....

– طعمه إيه ؟

– زى البحر .

– مالح ؟

- لأ .. زى ريحته .

تقف أمامى قائلة : يا مجنونة ..

تراقب ثديى المرتبك وهو يفلت منى من جديد .

: بصى .. أنا أسنده بأيدى من هنا .. لغاية ما يشرب.

تمـد كفهـا وتسـند به ثديى، يعود طفلى لطعامه عبر أنفاس (أروى) المتلاحقة والتى دائماً ما تصدر صفيراً من الأنف. تباغتنى بالسؤال .

: إحساس كويس ؟ .. الأمومة .

أقـول أشـياء مختلطة حول الحب الذى مضى سريعاً.. وأشياء أخرى حول الزمن الذى لا يكفى أبداً .

يفلت ثديى من جديد .

تراقبـنى طويـلاً وأنـا أحـاول وحدى . لماذا خشيت أن أعترف لها بشـعورى بالذنب تجاه الإنجاب ، وطفل جديد لهذا العالم. أخشيت من (الأكلشيه) ؟

- امبارح رحت بيه للدكتور .. خفت وأنا ماشيه حد يخبطه .

- .....

- مشيت جنب الحيطة طول الطريق .

- .....

- الصـبح.. بـتفاجأ بيه جنبى .. ساعات أصحى وأنا بشهق وهدومى غرقانه فى اللبن ومش عارفه أرَضع .

- أعرف إن الحلمة ...

- ... مش عارفة أكبرها ... جسمي بيقشعر .

- دايما متخاصمة معاه .. دا جسمك.. بتاعك.. اسمعي .. ورينى .

- أستني .

أمضـــى إلـــى الحمـــام ، أعتصـــر اللبن من ثديي في الزجاجة، أعود لأرضعه لطفلي .

أراها محدقة إلى اللبن في الزجاجة .. ثم تنطفئ العين في شرود. اقترح عليها الثدي الأيسر .

: ناحية القلب .. يمكن .

تضـــحك وهي تغمس أصابعها في الزيت .. تبدأ في تدليك الحلمة وهي تـــتأمل الثقوب التي تفتحت فيها لمرور الحليب ، أتكتم خجلي وألمي .. أحكي أشياء مشوشة بإجهاد وشعور قاتل بالنعاس أثر سهر طويل.

: مددى قدامي هنا .. وأنا أعملها لك.

استســـلم لاقتراحها وأنا أترك ثديي بين أصابعها ورائحة الزيت تذكرني بأشـــياء خافـــتة ومخـــتلطة . مدرستي الابتدائية ووجه معلمة الألعاب الرياضـــية الجميلة التي انتحرت في صباح ما .. أبي وطبق من الفول بالزيت أمامه .

أســـمع صـــوت أروى وهـــي تحكي عن آمال بعيدة ضائعة .. وخيانة البعض لأنفسهم . أردد وأنا أقاوم النوم :

- لو الواحد ليه جسمين .. واحد يتعلم فيه .. والثاني يسعده .

- فعلاً بتكبر .

ألمـــح في نهاية الحجرة فوق منضدة صغيرة ضوءاً برتقالياً يلمع. أفكر أننـــي لابد وقد سقطت في النوم وأن عباد الشمس هناك .. يتفتح بقوة. أســـمع ضـــحكاتها وأنا أحاول أن أسيطر على ثقل جفوني. أحدق إلى عينيها وبريقهما الطفولي .

: أنا بنام ..
تصرخ فرحة : شفتي .. بتكبر .
تلفني أنفاس طفلي الراقد بجواري ، وعطره الطبيعي الأكثر فتنة. أشياء بعيدة حول ذلك الكنز بفرحته المؤلمة تهيم حولي . ألهث خلف أصابعه ... سريعاً ... سريعاً لأمطرها بالقبلات والدموع .
أنـــام .. ويخـــيل إلى أنها تقف فوق رأسينا تراقبنا طويلاً .. شاردة .. زجاجـــة اللبن في يدها .. تفتحها تتحسس ما بداخلها بطرف أصابعها.. ثم تفعلها وتتذوقه.. وألق يتوهج من روحها القديمة سريعاً.. ثم ينطفئ .

* * *

صاحبة الكاب تمسك بيدي ، تضغط عليها .. أتأمل مظهرها المتخبط .. أحمـــر الشفاه شديد القتامة ، البودرة الموضوعة فوق الوجه بإهمال .. فـــي محاولـــة لإخفـــاء سمرته ، القرط المتدلي بإفراط تحت الكاب .. فستانها بقلوبه الحمراء والذهبية .
يتسلل صوتها من جديد إليّ .. أشياء حول أولادها الذين كبروا بما يكفي لاســـترداد أنفاسها ، مشاريع عن التحقق ومقالات ستكتبها في السياسة والفكر .
أخمن أنها تجاوزت الستين من عمرها ، وأنها خرجت منذ وقت قصير من مطبخها الذي ينضح بالدهون والتعاسة .. حيث قلب زوجها الساكن

في معدته يتسلل منه رائحة ثوم . أزيل بأطراف أصابعي بعض البودرة فوق أنفها . تبتسم . تؤلمنى طيبتها .

: معاكى حاجة في الشنطة ؟

أخرجت من حقيبتها قطعة من النوجة ، فرحت أمضغها وقشعريرة تدب في جسدي .

: نوجة غريبة !!

سقط حشو أحد الأضراس ملتصقاً بالنوجة . أتذكر بضيق ما تكلفه هذا الضرس من نقود أقترضتها من صديقة لي ولم أردها بعد .

قلت وأنا أقف أمامها :

– ماتروحيش هناك تاني ..

أمسكت بيدي وراحت تشدني إلي الجلوس.

– أنا مش قلت لك تمشي كثير ؟

– أمته ؟

– في مؤتمر اللغة .. إسكندرية .

– ما روحتش هناك .

حدقت إلىّ صامتة وأنا أتحسس بوحشة مكان الحشو الفارغ .

أحاول أن أرتب أفكاري ، سأبدأ في استعمال الكارت من جديد ثم أترك البلد كلها .. والطلاق .. وأشياء سأتذكرها حتماً . نعم .. الأشياء .. التى...

أفكر في أوراقي المفقودة محدقة إلى عربات الأجرة التي تعبر في الخارج وارتياح غامض يتسلل إليّ كلما أدركت ضياعها . أحاول استرجاع بعض مما كتبته وتلك الذاكرة الخاصة بالكتابة .. الأكثر رعباً

وفتـــنة . كم هو مغرٍ ذلك السقوط للذوات التي عشتها ممددة هناك في تلك العربة كالاسفنجات .

– مش تشوفي دكتور علشان الحاجات دى ؟

– .....

– كل حاجة تتعالج .

أفكر أن أبيع (الكارت) إلى أحد الأجانب الجالسين حولى .

– في إسكندرية .. في الجامعة .

– مابروحش الجامعة .. الأكاديميين بتوع الأيام دى ...!!

– مين ؟

– اليويو .

– اليويو .أللى بينط بأستيك ؟

وجدت نفسي أشهر فمي على اتساعه أمامها حتى شعرت أنني سأصاب بتقلص في الفك ..

: النوجة كسرت لي الحشو ..

أخـــذت أظهر الكارت أمام أحد الأجانب .. أخبره بالإنجليزية أنني أريد بـــيعه .. تتعـــثر شـــهقتي بداخلي حين راح يردد أشياء بلغة غريبة .. أتراجع إلى المنضدة .

– قال لك حاجة ؟

– .....

– مالك ؟

تناولـــت يـــدي بين كفيها .. تدلكها . أستجمع قوتي في محاولة أخرى للبكاء وأنا استحضر اللغة التي نطق بها ووقعها المريب على أذني .

- أوراقي ضاعت .
- البطاقة ؟
- كل شوية أشهق زي الحمار .
- بتتخضى ؟
- .....

تذكرني بأشياء رائعة كنت أفعلها ، مرحي .. حيوتي .. ذكائي.. وقوفي أمام الوزير وقولى (: دا كلام فارغ) أتأمل طيبتها.

- أنا لم أر الوزير أبداً .
- كنتِ هناك .. قلتي أكثر من ذلك .

أتذكر بوهن .. كلمات تخرج من فمي مثل شيء معزول عني.. جاهدت كثـيرا في كتمانها.. لا أدرى حتي الآن كيف تغافلني وتنطلق وحدها. رصاصـات في وجوههم.. فوق العورات المكشوفة.. لم أكن أريد أن أتفوه بكلمة.. أنا لا أفهم .. هل أصبت بمرض غامض ؟!

تقـول المغنية ! أنك تعالجين نفسك منهم .. صوتك يتردد دون إرادتك ليذكرك أنتِ وليس هم .

أفكر في الأستاذ .. وفكرة أنه سوف ينسي ترعبني .. أشهق !!

* * *

مـرت لحظـات مـن الصمت رحت فيها أراقبها وهي مطرقة صوب الأرض . نظـرت في عيني طويلاً وهي تهمس إليّ بأشياء حول جرأة بعض الكاتبات في الكتابة عن الجنس .. ثم قالت بصوت مخنوق:

– ماحستش بيه غير مرتين أو ثلاثة !!

– .....

– أول مرة أقول كده .

– أول مرة .

تميل صوب الأرض شاردة ، أحث نفسي على البكاء وأنا ألمح عبرات محتبسة في عينيها . أفشل من جديد .

: مش فاكره أنه باسني أبداً .. في الأول وبس زمان .. وبعدين!!

خمنت أنها تتحدث عن زوجها ، ورأيت الكارت داخل غلاف بلاستيكي للمرة الأولى .. قلت بحماس :

– ماحصلوش حاجة .

نظـــرت إلى ساهمة .. الطرف الأيسر لشفتها السفلي يرتجف ثم يتوقف ليعود من جديد . أفكر في جسدي الغائب .. أنظر إلى الخارج .

فتحت حقيبتها تحت عيني ، كانت ممتلئة بمعطرات للفم ومعجون الأسنان .

: جايـــز بوقـــى ريحـــته وحشه .. يمكن !! بغسل سناني كل شوية!!.. شايلاهم على طول .

الـــرايات تمـــلأ المـــيدان ، اســـتعداداً لانتهاء المباراة . أتخيل جسدها المحاصـــر بالـــثلاث مـــرات من الجنس وقبلاتها المفقودة . تقف شبه عاريـــة، الكاب التركي مازال فوق رأسها ، يضغط عليها إلى أسفل .. صوب الأرض .. وعرق غزير يغرقها .

– في الشارع اللي ورا القهوة .. فيه راجل بيقعد قدام محل جزم .

– .....

- أجمل راجل شفته .
- أجمل راجل .
- ساعات بَعَدْى .. أتفرج عليه وبس .

فكـرت أنني لم أعرف بالضبط ما هو الرجل الجميل ، حتى رأيته في يوم بعيد .

* * *

أجلس هناك . مثقلة بصورة رحمي فوق شاشة الأشعة . أشرب القهوة ، وأختنق من الرطوبة ومن جسدي .

: بويضه !!

يبتسم الطبيب بفرح طفل ضبط قطعة شيكولاته .

- آه .. تصوري . بُصي .. هنا .
- أزاي؟
- النهارده ياستي . لو عايزه طفل كمان .. لو ..

نراقـبها معاً وهي تتحرك ورغبة في البكاء تدفعنى إلى الضحك . لماذا رحت أختلس النظرات إليه على هذا النحو ؟! في الطريق أخذت أحدق إلـي الـرجال الذين يعبرون وأفكار حول جسدي الوحيد تضغط فوق معدتي ، وتلك البويضة الشاردة تسرب إلىّ شعوراً بالذنب !!

الوقت يقترب من الغروب ، كان علي بعد خطوات قليلة مني .. يشرب البـــيرة . لم أكن أرى سوي جانباً من وجهه.. المائل قليلاً إلى المنضدة وخصـــلات من شعره تلتصق بجانب من جبهته .. أنفه المنحني بعذوبة نحـــو شـــفته العلـــيا يذكرنى بحميمية قديمة وفوق السفلي الرقيقة تلمع قطـــرات مـــن البـــيرة في طفولية ، يتكئ وجهه بجلال إلى كفه.. كان حزيناً.

لـــم أفكـــر من قبل أنه يمكن أن يكون لرجل ساعد بكل هذا الحضور . القمـــيص المثـــنى فـــوق الكوع .. يلف ذلك التكور العضلي الرقيق .. البشرة السمراء البرونزية تشع ضوءً حول المنضدة .

أراه ولا يراني .. لكنه فجأة يرفع وجهه وينظر في عيني تماماً!!

كانت لي تلك العين للحظات . يمضى لأتبعه على بعد خطوات في أزقة جانبية ، دون أن اقترب منه .

كان يعبر بانحناء رجل وحيد منكس الرأس قليلاً .. أحافظ على المسافة بينـــي وبينه مثل لصه ، أرتشف هذا الحضور السري وحدي .. تتسلل إلـــى شاشـــة الأشعة هناك .تفلت البويضة منها ... هائمة ... تحملني معها. أشعر بجسدي خفيفاً .. خفيفاً خلفه حتى أختفي .

* * *

أشـــرب ماءً كثيرا . تعود إلى منضدتها مسكرة برجلها الجميل . تنكب علـــى الكتابة وشمس توشك على المغيب تفضح عروق الدوالي بساقيها .. المتفرعة مثل الأشجار .

أفكـــر بغموض وأنا أدخل إلى نعاس مفاجئ أن التفاني والزهد دوالي ، كلمـــات الحـــب تتحول إلى سوائل .. الغضب .. الصدق .. الحرية .. يـــتحولون إلى (غرغرينة) في الساقين بسبب داء السكر..العدل صديد جنباً إلى جنب مع الإنحطاط!!

أســـلى نفســـي بظـــل بعيد .. أنني لم أقل لرجل يوماً كلمة غزل . هل عرفت حقاً ما معني رجل جميل ؟!

أسمع صوت شهقتي وأنا أستيقظ لأجدها أمامي .

– أهم حاجة قريتيها .

– .....

– السنّه دي .

أبحلق فيها .. أنساها تماماً للحظة .. ثم أستعيدها .

أقول : بهجة العالم .

– بأيه ؟

– بأعضاء (بيل كلينتون) التناسلية .

– أنت نمتي ؟ فعلاً !!

– فعلاً

تجلس أمامي من جديد .. تهمس :

– كنت عايزه أقول لك !!

– .....

- فيه واحد بيجي يديني الحقنة . في البيت .
- في البيت .
- أدتله مرة عشرة جنيه .. عشان .. يبوسني .
- عشرة جنيه .
- بقشيش كده.. جوزي كان في البيت .
- شافه ؟
- فيه سنان كانت واقعة .. ماعرفتش !! افتكرني مجنونة.
- .....

نظرت إلى المنضدة طويلا ثم قالت :

- خد الفلوس وجرى .

تحكـــي أشياء حول زوجها الذي يعمل أستاذاً في الجامعة ، خمنت أنني أعـــرفه .. وربمـــا سأســـأله يوماً عن القبلات المفقودة .. وربما أيضا ســـيحكي لـــي بآسي أشياء حول عقل زوجته المحدود ، مستشهداً وسط الطريق بمقولات لكتاب عظام .. وسألمح ذقنه المحلوق بإسراف وذاته المـــتورمة تعـــوم فوق آثار كريم الحلاقة ، حيث يسرب إليّ فصاحته واستشهاده ورائحة الثوم الأبدي تتسرب من قلبه .

* * *

تجرفنـــي قبلة السيدة بجنيهاتها العشرة إلى الفيلا المهجورة حيث طفل غريـــب في صدري ، ورجل فوق دراجة مرددا : الأوضة اللى قدامها البطيخ

هل قلت لها وأنا خلف اللوحة (خذى منه عشرة كمان؟)
يخيل الىّ أنها عادت باكية تحمل أربع بطيخات في حقيبة بلاستيكية .. تلعن الرجل وسط نشيجها .
– إداني البطيخ وعشرين جنيه بس !!
– .....
– قاللي الواحدة بخمسة .
تفترش الأرض أمامي ، تتفرس في طفلها الممدد فوق حجري.
أقول : الولد ده مش بيكبر !! مش ...بيكبر ... مش
نحدق إليه طويلاً وسط أضواء تتخبط فى البعيد
: هاشترى منك بطيختين
التهم زوجي نصف بطيخة بكامله وأنا أراقبه بحماس .
– مافيش نهاية للشذوذ الأخلاقي .
– مافيش. ألم تحبينى يوما ؟
– .....
أستمتع بمضغه المتقن وصورة البطيخ الذي حولنا أكثر من نصفه سراً من أمام بيت الرجل إلى شارع مظلم تهيم في رأسي .
– الراجل ده ممكن يبلغ عنك .
– يبلغ

تختفى ، طفلها فوق كتفها.. يهتز مثل دمية ممزقة . بعد يومين فقط .. سـمعت صـوتا خافتاً يشبه صوت زوجي وهو يساومها . فكرت أنه ربما فعل ذلك من قبل مع أخريات، بعد أن صنعنا تواطئنا دون ضجيج حول رغباتي وموتها في البيت اللامع .

– أداني خمسين جنيه وشقة بطيخ

– ريحتك !!

– فل . أصله حط لي من الريحه أللي عنده

أفكر بتشوش في زجاجة عطري المهملة هناك . يد زوجي قابضة عليها لتنثرها فوق جسدها .

أشارت إلى مؤخرتها .

– من بتوع هنا .

أتخـيل بحلقاتـه الأولى إلى مؤخرتي والتي ترقد الآن هناك في حجرة التجميل خلف المرايا ..

كأنى أسميت ذلك العام.. عام البطيخ .

* * *

– ماذا تفعلين بجسدك ؟

– أحفظه في ثلاجة

ينظر فى عيني ويقول : أنت تتحللين !!

– أشم الرائحة

– هل شاركت أنا في ذلك .. هه .. هل فعلت ؟

يقــترب فجأة منى .. يحاصرني .. ضاغطاً بيديه فوق صدري يتسرب من ثديي نقطة لبن

: لسه فيه ؟!

أفلت منه ، أدخل إلى غرفتي مرددة :

– مجرد نقطة

يتسلل إليّ شعور بالذنب كوني أرضع طفلاً غريبا .

كــيف تورطــت فى هذا الأمر ؟ أى خصام أدبره مع جسدي كما قالت (أروى) ؟

: كيف تشعرين وأنت تفلحين أحيانا في إرضاعه

أنظر الى عينها اللامعة ثم الى طفلي .

– هل ستصدقين ؟

– أنت اكثر من أصدقه

– أشــعر بشيء عدمي كأن جسدي كله موصول بأنابيب رفيعة لافراز اللبن

– كل جسدك

– نعم يصعد كل جسدي من أسفل الى أعلى ... يتكثف هناك حيث مكان اللذة ، ثم أعلى لتختفي أثناء صعودها الى الــ... !!

– الأمومة !!

آراه بعد ذلك ساهماً أمام طفلنا النائم فوق الأريكة . أفكر فى أنه لم يشر إلى إمكانية انفصالنا ولو مرة واحدة ؟ هل سألته عن ذلك يوماً ..؟
أخمـــن أن شـــيئاً خاصاً بينه وبين فتاة فرنسية تدرس العربية ، مرات ألمحهما وهما يتحدثان.. في المنتديات الثقافية وأمسيات الشعر .

في ذلك المساء سمعته يحدثها جانباً. كنت جالسة خلفهما دون أن ينتبها إلىّ . كان صوته يرق ويتهدج مثلما كان معى فى لقاءتنا الأولى. تدس فـــى كفـــه مظـــروفاً .. خمنـــت أنه بعض من مستحقاته عن ترجمات لمجـــلات فرنســـية عن الفن. المسرح بصورة خاصة . يتحرك حولهما صديقهما المشترك، بحركاته التي تشبه القفزات من فرط الزهو والكذب والامتلاء من ثروات الأمريكان . أفكر أن نقود طعامنا على الأقل تأتى من فرنسيين . أضحك من الفكرة وأنا أراقب صاحبنا القافز.. والذي لا يطيق نفسه من شدة الرضا .
حيـــن استطعت أن اتأملها جيدا بعد ذلك .. كان بوجهها شيء منفر .. يشبه القسوة .

يـــأتى شاب وسيم، يترك للسيدة شيئاً مغطى يشبه قفصاً به ثقوب بأعلاه تســـمح بالـــتهوية . فجأة تأخذ حقيبتها وهى تضع القفص أمامي وتتلفت حولها .

: خليه عندك.. راجعه بسرعة .
تترك المقهى وأنتظر طويلاً .

* * *

أدور وأنـــا أحمـــل القفص متخبطة بزحام الانتصار الكروي. أتفحص محلات الأحذية.. أخمن أنها ذهبت لإحداها لرؤية (الجميل) .
أتمني أن يقبلها طويلاً
أدرك بوهـــن أنني لم أكتشف ما بداخل القفص حتى الآن. أنتزع قطعة من الورق من أعلى ، تنقض عصافير كثيرة فوق أصابعي، أبحلق فيها لاهثة.. أحاول عدها.. أفشل. كانت رمادية .

تلح على زيارة أمي، والبوح الطويل المؤجل .
أرانـــي بغرفتـــي.. في يدي كتاب.. وتلك الهمسات تتسرب من غرفة شـــقيقتي إليّ . صوت أمي الخافت، ضحكاتها المربكة معها.. تلك التي لا تضحكها أمامي أبداً . دائماً هناك.. ونهر من الأسرار بينهما .
– مافيش مكان لحد فى الأوضة غير الكتب .
– أنا هاجيلك فى أوضتك يا ماما .
تمضى لكي أتبعها بعد ذلك.. وأنسى .
تعـــودت أمـــي نســـياني فـــي غرفتي القاسية.. بين الجدران والأوراق وتعودت أنا أيضاً هذا النسيان .
– هل كبرت يا أمي ؟
– أكاد لا أعرفك .
تتقافز في رأسي الحكاية القديمة. الشقيق المتوفى فى الثانية من عمره.. حيـــن كانـــت أمي تحملني في أحشائها وأشياء حول صدمتها وارتباكها

ناحية الطفلة الجديدة والتي كنتها وبقايا لظل امرأة عجوز قامت برعايتى بدلاً منها .

أطفـــال كثـــيرون يموتون في شهورهم الأولى، لأراهم من نافذة بالبيت تطـــل علـــى الدرج محمولين فوق ذراع أمي واحداً بعد الآخر.. وهى تهبط السلالم الطويلة.. أبى خلفها جامد الوجه .

: أنـــت الســـبب فـــي موتهم.. الورث جاى من عندكوا.. كل أولادكم بيموتوا .. البنات هي اللي بتعمر .

يحـــاول أبـــى أن يهدئ من ثورتها في كل مرة.. حائراً في الغرفة، لا يدرى ماذا يفعل .

: بس أنا عشت وبقيت راجل.. مش مالى عنيكى .

يـــتركها لتبكى وترتاح. في الليل يأتى بأسطوانة جديدة للقرآن.. ومعها أخرى لأم كلثوم .

– أم كلثوم !!

– قلت أشتريها وأخليها .

حيـــن تغادر أمي الغرفة.. يلملم سريعاً أي أثر للطفل المتوفى.. أشياءه الصغيرة.. يجمعها في حقيبة بنية اللون.. مازلنا نحتفظ بها ببيت أمي.. ثـــم يدسها في الخزانة بسرعة ولهاث كمن يطرد الموت، ليجلس بعدها فوق الفراش.. محدقاً إلى الضوء في الخارج .

أفكـــر أن الحقيبة البنية التي تبدل دورها عبر سنوات.. من مكان لحفظ الخطابات القديمة.. وأشياء كنا نستغني عنها مؤقتاً بحجة أننا سنصلحها يوما ما .. استقرت في نهاية الأمر إلى حفظ الملابس الداخلية الخاصة بأمـــي والتي لم تعد تحتاج إليها وتري وضعها في سلة المهملات، كثير

من البذاءة والاستهتار. ظلت أمي تضع حول بطنها ذلك الحزام القماش بعد كل ولادة.. تشبك فوقه تلك الدلايات الرقيقة الذهبية.. بعد ما كنا نعلقها فوق ملابس كل طفل كما جرت العادة .

حين أكون هناك أحاول مرات عديدة أن أمسك برائحتها وهى تعبر بجانبي.. الرائحة التي توارت خلف عطرها المنثور بإسراف في محاولة لإخفاء رائحة المطهرات والمراهم فوق جروح ساقيها المزمنتين. أتشمم كل شيء .. حجرتها .. الأصص المزروعة .. الياسمين الهندي.. المطبخ بروائحه المشتتة.. غرفتي الملتبسة.. كل شيء تقع عليه عيني .. مثل كلب يفتش عن سر .

أفكر في الأريكة التي تخصني بغرفة المرضى.. والدفتر القابع تحت حواشيها. كأني أدور في البيت... أقرر كما حدث مراراً.. أن أنتزعه من هناك وأنفرد به، أسترجع الفتاة التي كنتها ... الموقوتة بكل الكلمات عن التحرر والاستقلال. أي أشباح ستفاجئني هناك.. وتنقض علىّ !! أي أم سيطالعني وجهها من بين الصفحات؟!

: كل ما تيجي تمسكيه وترجعيه تاني .. فيه إيه ؟!

ترد شقيقتي عابسة : تلاقيه شويه شعر عن الحب والدموع .

بأى قدر تستطيع أمي المؤلفه فوق السطور أن تتعرف على أمي الأخرى؟ ألم أكن هناك في المسافة الشاسعة بينهما، أرتب عزلتي المزمنة؟!

(أنه يحاول أن يجعلنى أشرب معه البيرة ولكنه ..!!) لماذا تقفز تلك الكلمات إلى رأسى الآن؟ متي قالتها أمي لأنقلها فوق الصفحات؟

(: تحبيـــن رائحة فمى بعد البيرة . لماذا تتكرين ذلك؟! أنت الشرطى الذى يراقبك طوال الوقت..)

(: ولكنك تفضلنى هكذا !!)

تقول أمي أنني كلما جئت أحاول إعادة ترتيب البيت. أحمل المقاعد إلى أماكن أخرى .. بظهر ضعيف متهالك .

– أحـــبها هكذا .. كما كان والدك يحبها .. أليس لك بيت ترتبيه؟! منذ أعوام وأنتِ تقولين أنك ستأخذين الأريكة !!

* * *

أندفـــع إلـــى الأمام وسط الفوز. تتقافز العصافير فى هياج شديد، يكاد القفص يفلت من يدي . فى شارع جانبي أقف أمام أحد المطاعم.. أندفع إليه وأنا أشعر بعطش هائل .

في ركن من المطعم .. كان مستغرقاً في كؤوسه العديدة ، أشرب الماء الـــذى أمامه بالدورق بنهم، أبحلق لاهثة فيه ، عيناه الزائغتان بحولهما المفرط تحاولان الإمساك بى .

– أنتِ هنا !!

– كنتَ عطشانة

أفـــرغ لـــي كأســـاً من زجاجة الويسكي الخاصة به، صارخاً فى وجه الجرسون، يطلب بعض الثلج .

– مش عايزه يا أستاذ ... أنت شربت كثير !!

– يـــ ..... و ..... و ..... ه

– كنتِ فين ؟

– في السيرك .

– والله كويس ... شفتى اللبؤة ؟

– ألفاظك بذيئة .

أفرغ كأساً أخرى في جوفه ثم قال :

– الـــرجالة نوعيـــن.. نوع يسأل عن الأسد.. والثاني عن اللبؤة وأنتِ بتهتمى بأيه ؟

– المدربين.. ينفع ؟

– المدربين !!

– أللي كلتهم الأسود

ضاعت نظراته في شتات الحول.. وصمتنا لحظات قصيرة :

– كنت ناسي حكاية المدربين دول... فعلاً ... الأسود بتاكلهم .. واحد ورا التاني .

– قريت مقالتك عن عبد الناصر .

أدركـــت لأول مرة توقف العصافير عن الهياج.. أخذت نفساً عميقاً ثم قلت : كانت مقالة حلوة .

صمتنا من جديد ، خشيت أن أسقط في نوم مفاجئ .

قال : فيكي حاجه منها !!

خمنـــت أنه يقصد المغنية العجوز وأنه سيكرر علىَّ حكايته معها.. تلك الأكـــثر فتـــنة من بين كل الحكايات .. شريكة الحب والنضال.. الشك والهـــزيمة، اللعـــنات المتبادلة.. وذلك التواطؤ بينهما في ألا ينتهي ذلك أبداً.

– أنتوا أجيال خايبة جت فى آخر الفيلم .

– وأنتو سرقتوا الفيلم كله .

– أنتِ ما بتحبنيش، ومقالتي ما دخلتش دماغك ، أنت حتى ما بتحبيش نفسك .

أختلس النظرات إليه وهو يهمهم بكلمات غامضة وسط كؤوسه.

ووجدتني أشرب الكأس الأولي ثم الثانية وسط ضحكاته.

– الثالثة تابتة

صعدت تلك السخونة من معدتي إلى رأسي بسرعة .

– هى ليه التالتة تابته ؟!

– أشربي وأنا أقولك

قلت وسط دوار وغثيان :

– مش هاشرب ... هاوصلك ... كفايه
– أمال شربتي ليه ؟
– شربت وخلاص
خرجت وأنا أشده من إحدى ذراعيه.. بيدي الأخرى قفص العصافير .

* * *

أخذنا نجر أقدامنا، يتوقف أمام بار (اليوناني الوسيم) أخمن أنه سيطلب منى الدخول من أجل كأس أخرى . يشدني بقوة مازال يحتفظ بها رغم كل هذه الكؤوس، لكنه يستسلم فجأة . نعاود السير من جديد .
تؤلمنـــي ذراعـــه الضاغطة فوق كتفى أحاول أن أزحزحه قليلاً طوال الوقت .. بلا جدوى .

يردد بثقل –
أما المجرمووون
فهم يجلسووون... في أول الصف
من خلفهم الهواة
أما المتواطئووون ... المتيمووون
بالكواليس ...فهم أصحاب الجريمة الكاملة
الذين لا يتركون فى أثرهم سوى هواء بارد

: باررررر د .... هه هه دي أشعارك ...
الهوا أللى .. أللى .. أهو أنا بقى كان معايا من شوية واحد من بتوع الجـــريمة الكاملة ، عمال يسرح بيا ويقول لى المثقفين يبقوا سياسيين

والسياســيين مــوش عارف يبقو إيه ، عمال أقول له الحفلة خلصت ، عامل نفسه موش مصدق . خرتية .. خر .

* * *

فــى ليلة من ليالى رأس السنة خرج الأستاذ من (بار اليوناني) ومعــه شاعرنا الكبير ، بعد ليلة من الثرثرة والمرح والخمر كان فيها الشــاعر ضيفاً على الصعاليك.. يهدهد (صعلكته القديمة) وسط قصائد لابــد أنــه انتقاها بعناية ضمن قصائد لم تنشر حتى تلك اللحظة ــ كما يروى الأستاذ فيما بعد ــ قبل أن يهبط على الرعية المأزومين ، لا كما ادعى شاعرنا أنها سقطت فوق رأسه كما الصواعق فى تلك الليلة .

كــان الأســتاذ يرتدى (طرطوراً) والشاعر أيضاً . لا أحد يعرف حتى الآن من أين آتى الأستاذ بتلك (الصفارة) .. التي راح يطلقها بكل قوته تحت الشرفات والتي نجحت في تحريك كراهية قديمة في نفس الشاعر، وصلت إلى حد الشجار بالأيدي .. تحت مطر الساعات الأولى من العام الجديد .

وبعــد ســهرة مجهــدة عند مخرج مسرحي (فرانكوفونى) ودعنا العام بمشــهد هزلــي لم يرتقِ إلى التأنق الروحي ... المعد سلفاً لتلك الليلة كالعادة .

يحكـــى زوجي ونحن نسير تحت المطر متكورين داخل مظلة واحدة... أشـــياء حـــول الفرقة التي يتم تكوينها مع المخرج المسرحي منذ ثلاث سنوات ، والتي كانت دافعاً لتركه وظيفته والتفرغ لها .

أســـترجع تحـــركاته وســـط الحفل .. التي أتقنها بثقة ورشاقة ، صوته الخافت ومداعبته لشعري برقة... قام بسبكها خصيصاً في تلك الليلة من أجل الفرنسية صاحبة الوجه القاسي . كانت تبتسم لي طوال الوقت وهى تسرف في ذلك التحضر الجاهز الذي يطلقه بعض الأجانب في وجوهنا ... على أننا أمة لا تنتج سوى الجنس والخرافة .

اسمها .. ! سأطلق عليها (سيمون) .

تنحني السيمون أمام زوجي لتستعرض رشاقتها في وقت يسمح له بتأمل جاد . تهمس له بفرنسية وصحة أحسدها عليها ، يتظاهر بالحياد الرائع، كنزه !!

– فيه جوه أوضه نوم جميلة .

– نعسانة ؟

– ليك أنتَ وهي

– أنتِ مجنونة .

– شوية مكياج أعملهم لها يظهروا حقيقتها .

– بطلتي تعملي مكياج للعواجيز والفاشلين ؟!

يـــتوقف لينظر في عيني .. يقول بهمس جاهد في أن يجعله محلقاً كما كان يفعل معها :

– هل أنتِ الشاعرة التي أحببتها يوما؟!

أدخل إلى غرفة نوم الفرانكوفوني .. استلقي فوق الفراش وأغفو لدقائق .. وقُــبلة لمجهول تهيم حولى . أعلم طوال الحلم أنه موجود.. يقبلني، ولكنني لم أكن معنية بصاحب القبلة .. قبلة فقط بلا صاحب .

* * *

أقــف هناك بملابس السهرة وكلمات تتحول في أذني إلى طنين، أناس يــتحركون حولـــي بتثاقل .. حاولوا أن يبدو برجوازياً . يختفون داخل العربات .

ألمح بصعوبة .. على بعد خطوات قليلة زوجي ينحني بالقرب من كومة كبــيرة فــوق الأرض . أصــطدم بحــول الأستاذ الضائع في الضوء الــرمادي، يتشــتت في السماء وهو ساقط فوق بركة موحلة . الشاعر ينفض ملابسه بإحدى ذراعيه لاهثاً والأخرى يشدها زوجي بانحناءة مع صعود الشاعر من فوق الأرض . أمد ذراعي للأستاذ .

: أديا أهه .

يمسح الشاعر أثار الطين العالق بسرواله ومعطفه . يقول بترفع :

– دعيه .. حتى تأخذه الشرطة .

يسأل زوجي : هل شرب كثيرا هذه الليلة .

يضحك الشاعر بمسرحية ويقول : شرب كالحمار .

يشهر الأستاذ قبضته في وجه الشاعر ، ليتلقاها زوجي في فكه.

: لن أحتاج إلى الشرطة .. فأنت هنا أيها العفن .

يبتعد زوجي مع الشاعر خطوات ، بينما راح الأستاذ يترنح أمامي وهو يهـــذي بكلمات حول تاريخ الشاعر الملوث بكل الأنظمة ، ودوره الذي يلعبه الآن بإتقان بهلوان كوسيط سري بين السلطة والمثقفين .

– أطعم الفم تستحي النفوس يا جعان .. جوعتوا النفوس يا كلب.

يفلت مني مترنحا تحت الشرفات التي بدأ أصحابها في المشاركة.

: أنت تعرف جيدا ما الذي يؤلمك الآن .. لم يعودوا في حاجة إليك .. تريدهم أن يفعلوا لتشهر في وجوههم فضيلتك الماجنة وبذاءاتك.

يهرول الأستاذ إلى شيء ما ساقطا فوق الأرض . يقربه من فمه لينطلق من هناك صفير .. طويل يطارد الشاعر الذي راح يهرول في الشارع حتى اختفي .

وقـــف الأستاذ وحيداً وسط الشارع والمطر . كان يشبه في تلك اللحظة المغنية العجوز . أسمع من إحدي الشرفات صوتاً لرجل يقول :

– دا لقي الصفارة !! الصفارة معاه .

يرد آخر من شرفة أخرى .

: ابن اللئيمة !!

* * *

يتوقف الأستاذ ، يحاول أن يلتقط قفص العصافير ليري ما به. أدفعه من جديـــد لكـــي لا يتوقف . في شارع جانبي يشير إلى بناية قديمة وسط مجموعة من المطاعم الشعبية . يخبرني أنه أستأجر شقة صغيرة هناك منذ عام ، تاركاً خلفه الزوجة الغبية وجحود الأبناء .

أخذنـــا نتخبط ببعضنا في المدخل المظلم للبناية ، وشعرت بغثيان وهو يضـــغط بـــثقل فـــوق كتفي متعثراً في جمل متقطعة .. واهنة .. عن كراهيتي القديمة له ، وتخبطي في زواج غامض . قلت علي طريقته :

– غامض .. أللي ..!!

ردد مدندنا : أللي .. أللي ..

يدفـــع بابـــاً بحذائه لإحدى شقق الطابق الأول . كان المنزل شبه مظلم سوي من ضوء خفيف يأتي من نافذة عالية جداً وصغيرة .

يخـــيل إليّ أن خلفها يقف العسكري صاحب الصورة وأنا أتلفت حولي بريبة وأخبره بصوت متهدج :

– دا مخزن !!

– عشان نقرب منه .

– فيه هنا توابيت !!

– فاضية والله .

طـــوال ساعات أحدق إليها ، وشئ يردد داخلي أن قصتنا سوف تنتهي هـــنا وخطوات الشرطى المهرولة فى الخارج ، تنأى بالرسائل بعيداً .. بعيداً .

- أنت قلت أنها فاضية
- والله فاضية
- طب ليه ...!!

: الحمام .

رحـــت أفتش عن الحمام في ذلك الضوء ، ذراعه لا يزال يضغط فوق كتفي.

: خليكي معايا .

كان باب الحمام مخلوعاً وموضوعاً بجواره .

- ما حدش معاك هنا ؟
- معايا (بروتس) .
- حتى هو ؟
- حتى إحنا .. دخليني
- فين ؟
- الحمام .
- أزاي يعني ؟

أنطفـــأ حول عينه ، في هذا الضوء الشحيح . كان يشبه في تلك اللحظة .. طائـــراً رأيته كثيراً في حديقة الحيوان لا أعرف اسمه .. له جناحان كبيران ولا يطير سوي قريباً من الأرض .

ألهث بكلمات حول ما يحدث ، أنعته بالسُكر والنفاق .

قال : أنا أكثر واحد فاهمك .

- عايزني أدخلك الحمام عشان فاهمنى ؟
- أنت حكايتك أيه ؟ .
تفجرت في أنفي رائحة النشادر الآتية من المرحاض .
: حكاية مهببة..؟
فكـــرت أن أمضي وأتركه وحده . للحظة فقدت إحساسي بالجغرافيا .. كل الجغرافيا التي أعرفها . كأنني أقف فوق نقطه واحدة .. مطلقة .
تذكـــرت أنني أحمل شيئاً ما ، فأخذت أستجمع نفسي بصعوبة ، وشبح الأستاذ في الظلام يترك في صدري ما يشبه الشفقة .
- أنت عايز تدخل الحمام ؟
- ياريت .
- هادخلك وأمشي .
حيـــن عـــادت ذراعه إلي كتفي تسللت إلىّ رائحة عطر أنثوي مختلطاً برائحة الكحول . فكرت بضيق في الكارت القابع في إحدى جيوبي.
- أهه الحمام .. أقعد بعد ما أخرج .
- أنت ست محافظة !!
- جداً .. ها تقعد ولا أمشي ؟ .. فين النور هنا ؟
أخبرنـــي أن معظـــم مصابيح البيت إحترقت . التصقت خارجاً بالجدار الممـــتد للحمـــام . بتشـــوش أخـــذت أتصنت على تدفق بوله وشعرت بانقباض.
أتذكر بوهن تلك القبلات التي استقرت في القبو هناك سراً !!

* * *

في ذلك اليوم شرب كثيراً كعادته .. جالساً فوق الأرض محاطاً بفوضي أوراقـــه . يرجوني أن أجلس بجواره .. يقرأ بعض الأوراق .. يضحك .. ثم يمزقها. كانت شيئا حول المثقف والسلطة . الأصدقاء الذين تبدلوا ... المناصب والمؤسســـة .. المال المتوج بالعمل الثقافي ... الأكاذيب المشروعة .. ثم بدأ ذلك الشيء في التشكل حولي حتى تكشف ناصعاً . كـــان يتألم من الخيانة بالطبع .. ولكنه أيضاً، كان يتألم من شيء ينبض لاهثاً في قاع روحه ... يشبه الغيرة !!

رحـــت ألملم ما استطعت من الأوراق، أفكر بتشوش في الطريقة التي كان يحكي بها. أسمع صوتي مردداً .

: الفاتورة !! ..

يهمس : ماذا قلت ؟

أقول بإصرار : هل أنت نادم؟

أراه ، عينه ممتلئة بالدموع .. يحاول الحفاظ على توازنه .. لا يدري ماذا يفعل .. ثم ينظر عند يدي . فجأة وسط تخشبي يمطرهما بالقبلات. أراقبه دون أن أوقفه .. يتراجع حائراً .. يحدق فى أوراقه .. ثم يخرج إلى الحديقة. من النافذة العلوية .. أراه غامضاً ووحيداً .

* * *

صاح فجأة من الحمام

: أنا كنت بعيط في المعتقل زي النسوان .. أعيطلك شوية ؟

أنفجـــر في بكاء حقيقي .. تخللته آنات مخنوقة.. كتمت أنفاسى. وكان ثمـــة خطوات تتحرك في نهاية الصالة المعتمة . رجوته أن يتوقف عن البكاء ويخرج إلىّ، أكاد أسقط في نوبة من الإغماء.

: فيه حد هنا ؟! فيه حد ؟

فتشت بعيني عن صاحب الخطوات ورأيت ذلك الأجنبي الذي عرضت علـــيه الكارت بالمقهى . حين تذكرت لغته، خطوت خطوتين إلى الأمام لأتبيـــنه جيدا . كان يقف تحت النافذة في نهاية الصالة .. يشرب بهدوء شيئاً ما .

خـــرج الأســـتاذ مـــن الحمام وهو يحاول وسط ارتباك جسده أن يغلق سرواله . أرعبني وجهه الهادئ ، وعينه المنطفأة في حولها .

– مين اللي هناك ده ؟

– .....

– مين ؟

– واحد .. جه يعمل حوار معايا وبعدين جه تاني .. وتاني ومرة جاب معاه الكمبيوتر بتاعه .. ولبد هنا .

– لبد !!

– عجبـــته ومـــش عارف يمشي .. دا بيسليني .. تصوري قال لي أنه جـــاب مـــن الكمبيوتر أني كنت أشول .. وبعدين بقيت أكتب باليمين .

طــوال الوقت قاعد على الإنترنت يرسل رسايل. هل سمعت أني كنت أكتب باليسرى ؟!

– وهل كنت تكتب بها ؟

– .....

– أهو لا يشعر بنا ؟

– أنه يري كل شئ ولكنه هادئ كما ترين .

يصــيح بــأعلى صوته : تصوري .. بالأمس أخبرني أن أغلب مثقفي مصر مازالوا يمارسون العادة السرية .. يقدرونها جداً !!

: يا أستاذ ... صوتك عالى .. أرجوك .

ابتعدت عنه خطوات ، أحاول أن أتبينه وهو يقف متأرجحاً في كتلة من ضوء رمادي .. ويقهقه .

– وهل تمارسها أنت أيضاً ؟

– اسأليه .

– ألا تعرف ..؟!

– أنا من الرواد .

أتكــأ إلى الحائط المواجه له ، أنظر عند حذاء الرجل الواقف في نهاية الصالة تحت النافذة . فاجئني الأستاذ وهو ممسكاً بالقفص

: فيه إيه ده ؟

أقــترب مــن منطقة الضوء الآتي من النافذة ، وراح ينظر طويلاً من الفــتحات العلــيا للقفص إلى الداخل .. ثم رمى به فوق الأرض ، وهو يفــر مذعــوراً نحو الخارج . ظل الرجل هناك هادئاً ، أهرول خلف الأســتاذ والقفــص بيدي .. ألمح وسط مصباح مضاء في ممر جانبي

غــرفة مفتوحة ، بابها مخلوعاً أيضاً . الكمبيوتر يطل من الغرفة ساكناً فوق منضدة .

* * *

أخترق الزحام باحثة عنه . أفكر فى الزهور التي أعاد الأستاذ غرسها في حديقة المغنية . أكانت عباد الشمس!!

فـــي ذلك الفجر الصاخب ، بعد اختفاء الشاعر بدقائق قليلة ، حكى لنا فيها الأستاذ بوهن أن (الصفارة) كانت سبب المشاجرة حين راح يطلقها فـــي إيقاع خاص فجر ما استمات الشاعر في إخفائه طوال السهرة في بار (اليوناني) وراح يقلد لنا بما تبقى له من أنفاس، كيف كان يطلقها . ببطء فى البداية ورقة ...ثم صرخات ممزقة في إيقاع طويل متقطع .
قال : لقد أخرج الصفير الأفعى من تحت جلده .
– ألم تتطاول عليه ؟
– لقد تعانقنا عند اليوناني عدة مرات .. أحببت هذا الآفاق في تلك الليلة .. لكن الصفارة !! كم هو مريب . أنه لم يمرض طوال حياته .. وهو أيضاً لا يرتدى ملابس داخلية أبداً !!
أخـــبرنا ونحن ندخله عربة أجرة أنه ذاهب إلى البيت لينام ، لكنه ذهب إلى العجوز . هناك... وسط ضوء ضبابي وبرد قاس جلس في الحديقة وحـــده ، يـــنظر إلـــى نافذة البيت ، ويأكل الجوافة المعطوبة من تحت الشجر .
قالـــت المغنـــية : رأيته من خلف الزجاج .. في الحديقة وقد شمر عن ســـاعديه وراح بنشاط شاب صغير يعيد زراعة زهور اقتلعتها الريح . أكانت .. ؟

حيـــن تـــتذكره بتلك النشوة ، تتفجر أسرارها دفعة واحدة تحت المسام، ويطل وجهه من ملامحها بصورة مازالت ترعبني . أنني أحسد كل هذا الجمال والحب .

تعيد من جديد حكاية الأستاذ مع (جوده خليفة) في حديقة الفيلا.. تضحك صـــاخبة وهـــى تحكـــى كيف انتهى اليوم بهما ، وهى التي دبرت ليلة للغـــرام بيني وبين زوجي .. بعيدا عن طفلنا والاعتياد . وقد كنت أظن .. كما اتفقنا أنا وزوجي .. أنه سيمر على لحظات ثم يمضى .

* * *

جاء .. لامعاً كالعادة .. بعد أن تعللت هي بذهابها إلى مشوار سريع . راح يعـد العشـاء بحماس ولطف علي غير عادته ، يقول أشياء حول سـوء الـتفاهم بيـن البشـر . أراقبه وهو يزين المائدة بالورود ويملأ الكؤوس بالنبيذ ، أشعر بارتباك وغضب .

- هاتمشي بعد الأكل ؟
- عايزاني أمشي ؟
- .....
- دا قميص بتاعها ؟

أنتـبه للـون القميص للمرة الأولى .. كان ورادياً، مما زاد من ضيقي. لامس بأصابعه صدر القميص معلقاً : الوردي الساذج !!

أزحـت يده بضيق .. بعد أن شرب من كأس النبيذ نصفه مرة واحدة : ألـم تعوديـن لكراهية الوردي .. ألم يعد ساذجا ؟! أن لك معان غريبة تطلقينها على الألوان .. هل .. هل ما زال الفرح برتقالياً .. وملابسك الداخلية سوداء ؟

يقبل يدي برقة جنسية .. أراقبه بجفون مثقلة بالتعب والنوم ، أطلب منه أن يمضـى كما اتفقنا ، أهذي بكلمات مشتتة . خيل إلى أنني قلت شيئاً حول رؤيتي له وهو يساوم (المتسولة) ، وأنني لا أشعر بأي ضيق مما فعـل ولكننـي لن أسمح له باستعمال عطري . ثم سمعت الباب يغلق بعنف.

فـــي تلك الليلة .. تقيأت وانتظرت عودة العجوز وأنا استمع إلى إحدى اســـطواناتها .. وأثـــر النبـــيذ يثقل رأسي . غفوت مكاني فوق الأريكة الواسعة بالطابق الأرضي .

أستيقظ في الفجر على قهقهات أليفة .. تتسلل إليّ من نافذة ضيقة تطل علـــى الحديقة . في الضوء الرمادي استطعت أن أتبين صاحبها . كان (جوده خليفة) يرتدى (بيجاما) ويجلس بجوار الأستاذ فوق الدكة الخشبية بعد تسلله من المستشفي بتواطؤ معه .

– بصي .. تعالي نجهز براد شاي لعمك جوده .

– مش هانفتحلهم الباب ؟

– لا .. دايمـــا بوارب باب المطبخ اللي تحت .. يدخل ويعمل أللي هو عايزه .

كنـــت أعـــرف أنها تقصد الأستاذ الذى تعود أن يأتي إلى الحديقة كيفما شـــاء .. حيـــث القـــبو الذي حوله إلى مكتبة هائلة خاصة به وحده .. ووحده أيضا يملك مفتاحها .

تنظر في عيني تحت ضوء مصباح صغير جانبي . تبتسم على طريقتها الساحرة وهى ترتب بأصابعها خصلات من شعري سقطت فوق وجهي .. ثم تدخل إلى المطبخ .. روبها الحريرى يمسح الرخام القديم خلفها. أفكر أنها لا تخاف شيئا .. وتوارب باب مطبخها دائما .

كان (جوده) يضحك ويتألم .

– يا وسخ يا فلاتي .. عمال أقول لك طهقان من جسمي .. قاعد تهزلي الدكة .. وراسك فوق فاكر نفسك (سقراط) بطل هز .. الست لو بصت دلوقتي هاتفتكرنا حرامية .

– ما احنا الحرامية .. أللي .. أللى ..

– طب ندخل المكتبة .

– مش داخل .. عايز هوا .

– طيب يا خويا .. هاموت قبلك .. كتك مصيبة .

يعود الأستاذ رافعاً رأسه .. نصف غائب .. يتأمله جوده بطرف عينيه. ثم يصيح فيه :

– فين الشاي يا عم ؟

– شاي إيه ؟

– يـــادى الداهية .. قلت لك بلاش هنا .. وفيه واحد بيعمل شاي تحت الكوبرى !!

– الساعة دي ؟

– آه يا خويا فيه اثنين وسبعين مكان بيعملوه الساعة دي .

يعـــود لينظر بطرف عينيه إلى الأستاذ .. الذي انحني إلى يساره، يلملم حبات الجوافة المعطوبة .

: أنا عارف بتحب فيك إيه ؟!

أنظر ناحية المطبخ خوفا من أن تسمعه العجوز .. يصيح (جوده)

: ألحق .. الباب انفتح .. شويتين الشاي بقه لحسن زهقت منك.. نشرب ونتكلم في المقالات .. إيه رأيك ؟

– مش كاتب .

– ماتكتـــبش .. أنـــا مالي .. كلوا في بعض يا أولاد الكلب .. أقعد بقه لوحدك .. اشتغل على ميه بيضه !!

– ميه بيضه .. ميه وسخه .. مش فارق .

– لا يا خويا فارق .. كله شغال على الميه الوسخة .. مافيش ميه بيضه يا جدع أنت .

يـــبحلق الأستاذ في وجه جوده كأنه يتعرف عليه للمرة الأولى . يتركه مقتربا بخطوات متأرجحة من باب المطبخ .. بينما يصيح (جوده) وهو يشير بيده إلى زهور تطل من الظلام .

: إيه الورد ده يا عم ؟!

أطفئ المصباح بسرعة قبل أن يراني الأستاذ وهو يدخل إلى المطبخ .. أفكـــر أنني لم أنتبه إن كانت العجوز صعدت إلى غرفتها أم لا. رحت أراقب الأستاذ وهو يحمل براد الشاي الكبير ويمشي بطيئا نحو الخارج. استرجع صورة القبو الذي حوله الأستاذ من مخزن يمتلئ بأشياء بالية .. إلـــى مكتبة .. رائعة .. زاخرة بالكتب والمراجع الثمينة، بالإضافة إلى جزء كبير يعد (أرشيفا) لجزء طويل وهام من تاريخ مصر .. وأهم المـــنعطفات السياســـية والثقافـــية لكبار المؤرخين والكتاب . أطلعتني العجـــوز .. بـــتقدير خـــاص علي مجلد كبير يحوى أهم (النكت) التي تداولهـــا المصـــريون طوال سنوات من تاريخ مصر السياسي ، وجزء خاص من تلك النكات، قام بتأليفها وتجميعها والدها ، مدون عنوان لها بخط كاريكاتيرى (حتى لا ننسي ياولاد الـــ... !!)

تقول العجوز : منذ سنوات لا أعرف عددها .. جاءني ببعض الأوراق والكتـــب .. قـــال أنـــه يخشى عليها من الشرطة .. وضعتها هناك في القبو.. ثم بدأت الحكاية .

– والبوليس ؟

– كـــانوا شـــايفني خوجايه .. واحدة بتلف العالم وبتتكلم لغات وبتغني لغات .. نص أهلها مسيحي، والتانى مسلم، خواجات علي مصريين .. بالعربي أرستقراطية مايعة !!

– بس دول استدعوكي كثير .

– كنـــت بحطلهم الأسئلة وأجاوب عليها .. يقولوا الشيوعيين أقول لهم اســـألوا (عبد الناصر) بحبه أد إيه .. يقولوا أنت بتحميهم بالحب ده .. أضحك .. يرجعوا يسألوا تاني .

– لكن المكتبة دي .. مافيهاش ضوء كثير .. والتراب دايما على اللمبة.

– فعـــلاً ... دايمـــا أنسي الحكاية دي .. هو قال هايركب حاجات تانية تنور كويس .. كمان بينسي !!

أود لو أخرج إلى (جوده) وأضمه إلى صدرى . أفكر في التقاط صورة لـــه بهـــذه (البـــيجاما) وجلسته تلك والكاميرا التي أحضرتها من أجل العجـــوز .. أصـــعد إلى الطابق الثاني .. التقي بها عند باب غرفتها ، يســـحرني تـــألق وجهها وعينيها .. تختفي التجاعيد بروح الأستاذ التي تهـــيم فـــي البيـــت . أفكر في أيام لم تترك أى أثر لقبلات زوجي فوق وجهي وصورتي الغريبة التي كنت أطالعها في المرآة طوال أيام عقب لقـــاء جنســـي بلا مشاعر . يخيل إلى أن النسب بين تفاصيل الوجه ..

كانت في تلك الأيام على نحو مروع . كنت أشبه أمي كثيراً في لحظات تمزقها من الوحدة بعد وفاة أبي .

– ها تنامي ؟

– عايزه أخد صورة لجوده من الشباك الصغير .

تندفع بمرح : أيوه .. مضبوط أنا كمان كنت بقول ..!!

أنظر في عينيها .. أخمن أنها تفكر في نفسي الهاجس .. والأيام القليلة الباقية له .

من خلف النافذة ... ألتقط صورة .

نظـــرات (جوده) في اتجاه ظهر الأستاذ .. تهم ذراعه بضربه هناك .. يده اليسرى فوق فمه تمنع تثاؤباً طويلاً . وكان لون (البيجاما) الرمادي يذوب فوق وجه (جوده) ويحيله إلى ترابي تحت أول ضوء شاحب لذلك الصباح .

كالعادة نسيت أين خبأت الورود
التى من أجلها اعيد الحكاية
كالعادة ... سأحكي دونها
وأدفع الثمن مرتين

أجلـس فـي انتظار من يشتري الكارت كما نصحني موظف السنترال واسترداد الثلاثين جنيهاً . أتذكر افلاسي الدائم والنقود التي لا تكفى ابدا. القفص ساكن عند قدمي ، تتحرك في رأسي أشياء حول جارتي الحالمة، بابهـا الموارب .. ساقاها المضمومتان .. الملتصقتان بالأريكة بجوار البـاب .. نظـراتها التـي تصوبها نحو الخارج بين لحظة وأخري.. وصوت زوجها يتردد من الداخل مثل شئ غير واقعي .. جلوسها فوق الرصـيف ناصعة وصادمة في آن . ذلك العنف الذي وضعت به حداً لكل البذاءات .. أيخلو من فتنة ؟!

في الطريق الخالي أمام السنترال أشعة من شمس رقيقة برتقالية تداعب الشرفات . تقع عيني على حذاءين من الكاوتشوك الأبيض ، متدليين من أربطتيهما من فوق المنشر.
أشـم رائحـة (الطباشـير) الذي كنا نستخدمه أحيانا في طلاء أحذية الألعـاب ــ عـند نفاذ الطلاء الخاص به ــ أنا وشقيقتي وصباح بعيد يلتصـق ببراءتـنا . لمـاذا تـبدو اللحظات الماضية أكثر واقعية من الحاضر؟

كنـــت بالصف السادس وكانت هي بالرابع . في الفسحة أبحث عنها في زحـــام الفـــناء .. أحمـــل إليها الحلوى وأدللها كأنها ابنتي . في العودة نقطـــف الـــورود من الأشجار من أجل أمنا . أحكي لها عن تسللي من الفصـــل إلى حصة الدين المسيحي وقصصه الفاتنة .. الملونة . أخفي عـــنها اكتشـــاف المعلمـــة لذلك وصفعتها فوق وجهي في كل مرة ، ثم جرأتي ذات صباح ووقوفي أمامها راجية منها أن تصفع الخد الأخر ــ كمـــا جاء في الدين المسيحي ــ لتتوالي الصفعات التي لم ترعبني بقدر مـــا أرعبتنـــي فكرة حدوث خطأ ما دينياً قد تم ، عندما تخطت المعلمة الصفعتين!!

فـــي مخـــزن الآلات الموســـيقية تدبرت هروباً هادئاً .. وسط إحساس بالكارثـــة التـــي سوف تحدث .. عقب الخيانة التي ارتكبتها المعلمة في حق ما هو مقدس .

لكنني أعترف لشقيقتي بأمر صور العذراء القابعة بسرية تحت وسادتي، لتصيح برعب أن وجود مثل هذه الصور سوف يمنعني من الإنجاب في المستقبل . أخبرها بحماس أن العذراء أنجبت .

: طفل واحد بس .. أنت كمان هاتبقي زيها .. طفل واحد !!

أردد برعب أحاول أن أخفيه .

: خلفت المسيح ... ولو عاشت كانت خلفت أكثر من كده .

يرتعش جسدي وأنا أتذكر الصور المتعاقبة لأطفال أمي الموتى.. وهم محمولين .. واحداً بعد الآخر فوق يديها . أخبر شقيقتي أنها تشبه (مريم العذراء).

– شكلها حلو ؟

– جدا .. بالليل نشوفها مع بعض .

حين مرضت شقيقتي ذهبت وحدي إلى المدرسة . في العودة أخبرت (مادليـــن) زميلتي في الفصل برغبتي في زيارة الكنيسة معها. هناك .. وســـط الأبخـــرة العطرة ، أغوتني مادلين بالاعتراف. من خلف ستار أسود ، في بقعة مظلمة قلت للقس أنني مسلمة .. أتيت إلى هنا للحصول علـــى (قربان) ذلك الذي فتنت بمذاقه ذات صباح حين راحت مادلين تلوح به أمامي في فناء المدرسة .. ثم رغبتي في الحصول على صورة بحجم كبير للعذراء .

حيـــن اكتشفت أن القرابين لابد من رشها بالماء المقدس ، خفت من أن يفسدها البلل .. فرحت أزيح إحداها بأطراف أصابعي .. خلسة.. بعيداً عن يد القس .

كلما تكرر مرض شقيقتي كلما تكررت زياراتي السرية باعترافي الثابت .. ذلـــك الذي جاهدت في أن أجعله وقوراً أمام القس بعد أن تخلي عن وجود ستار بيننا. (أنا مسلمة .. عايزة القربان وصورة كبيرة لمريم .. و..).

كان يبتسم وهو ينظر في عيني بعذوبة .. وينتظر بصبر .

فـــي المرة الأخيرة همست بارتباك .. أن معلمتي تجاوزت الصفعتين!! كانـــت كلماتي ترتعش فوق شفتي وأنا أحكي برعب أني لابد قد دفعت معلمتي لإفساد أمر ما . وسع ابتسامته وقال .

: همـــا أيضاً صفعتان ، مادمنا أعطينا الخد الآخر للصفعة الثانية.. كل صفعة بعدها تتساوى معها .

فـــي الطـــريق إلـــى البيت قلت لمادلين أنني لن لأذهب إلى هناك مرة أخـــري. كنـــت أكـــتم ضـــيقي مـــن المعني الذي سربه القس إلىّ عن الصفعات. حين همت مادلين بالدخول إلى شارعها قالت كالعادة

: سعيدة .

تذوقت للمرة الأولي كلمة (سعيدة) التي تقولها مادلين في ذهابها وإيابها، وبطـــريقة توفيقـــية .. مـــددت جسراً بين الصفعات و (سعيدة) . كانت مادلين السعيدة بالصفعات .

وفـــي صـــباح ما .. راحت تلوح لي بالقربان وهي تدور حولي. حين امـــتلأت بالغضب ، امتدت يدي فوق وجهها في صفعة سعيدة . تشابكنا متكورتين فوق الرمال وأنا أردد بصوت مخنوق : ضربتك على اليمين ولا الشمال ؟

سنوات قليلة مرت ، لا أدري كيف اختفت الصفعات فيها ، لتحل محلها (عذرية مريم) وتوحد جسدها .

حيـــن أتتـــي الدورة الشهرية .. فكرت أن (العذراء) لن تأتيها الدورة طـــوال حياتها.. فهي الطاهرة .. لم يطالبها أحد بالتطهر . ولأن مادلين أخبرتني أنهم أطفأوا جسد المسيح بالخل بعد صلبه ، ظلت رائحة الخل تهاجم روحي حتى الآن .. كلما رأيت إحدى الأيقونات للمسيح .

فكرت أن أخبر شقيقتي بقصة الكنيسة .. لكن .. ذلك الخلل السري في روحها .. كان يمنعني دائما .

أتذكر بغموض أشياء ترويها أمى حول ذهابى للكنيسة وسط قهقهات أبى وكلمـــات يرددها: بنت عبيطة .. ماالحنا مضروبين على الخدين .. مين أللى عنده روح ياخد تارُه.. ها.. ها.. أبقى خدينى أعترف معاك.

الحـــذاءان يرفـــرفان في الهواء الخريفي .. وحدهما هناك في الشرفة البعيدة .

* * *

أقطع الشوارع إلى أمي وشقيقتي ، سأحكي لهما عن جارتي ، وأسمعهما كل الكلمات المؤجلة . أشتري البن من البائع القديم ، وميزانين للحرارة من الصيدلية من أجل عيادة شقيقتي .

أدخـــل البناية .. أجلس فوق الدكة الخشبية ، وأشعة برتقالية تهرب من الدهلـــيز . أهدأ من نفسي لتراني أمي في صورة لائقة ، أخرج الكارت من الجيب .. ثم أعيده إليه من جديد .

يثقلنـــي وجه الأستاذ وهو يصرخ وسط الفوضي الكروية ، يفصل بيننا جموع محتشدة .. ثم صعوده إلى إحدي العربات المزينة بالأعلام.

أحـــدق إلـــى آخر برتقالي للشمس ، وهو يفر بعيداً ، وصوت الخواجه يضغط فوق رأسى .

كيف نسيت أن أسأل الأستاذ عن لغته ؟

لكنه في نهاية الليل سيلحق بالجنازة
ويستنهض بكاءه الكامل
حيث لا دموع ..... لا .....

* * *

كـــان بابنا موارباً .. جارنا الأرمل يقف في فتحته ، أبنته المتمزقة من فـــرط الإنطواء تقف بجواره .. وهي تميل بجسدها إلى اليسار . العائلة كلهـــا .. الأب .. الابـــنة .. الابن الغائب والقطة أيضاً .. يقفون بنفس الميل الذي يخف كثيراً حين يستغرق أحدهم في حوار ما... ثم فجأة .. عـــند الخـــروج مـــن الاستغراق يميل الجسد بشدة .. كأنه سيسقط في الحال!!

أمي جالسة تحت النافذة .. نظيفة .. لامعة .. شقيقتي تقوم بتسجيل شئ مـــا فـــوق جهاز (الكمبيوتر) . يخطو الأرمل إلي الداخل وهو ممسك بـــبرطمان ملـــئ بالمربـــي . القطة في صدر الابنة التي راحت تتابع مأخوذة ... واقفة بنفس الميل ما تسجله شقيقتي فوق الشاشة .

ألـــم تكـــن هذه القطة قد أنجبتها قطة البناية ، والتي أسرفت جدتي في تدليلها ثم استرخائها في صندوق أبي ؟

خـــيل إلـــيّ للوهلـــة الأولي أن أمي والأرمل قد صبغا شعرهما بنفس الدرجـــة مـــن السواد .. الأميل إلى الرمادي . حين قبلتهما فكرت أن للرأسين رائحة واحدة .

قالت شقيقتي وهي تلقي نظرة سريعة إلى وجهي أشياء حول شحوبي .

أســـرع الأرمل إلى وصل حديث قد انقطع عن فاكهة الموسم التي يجيد طبخها ببراعة وتحويلها إلى مربات فاخرة .

جلس بجواري فوق الأريكة ، وراح يغرف بمعلقة صغيرة من برطمان المربي ، ويدسها في فمي بسرعة .

- استني .

- لا .. استني أنتِ .

يهـــرول إلـــى شقته المقابلة لشقتنا ، خلفه ابنته والقطة بميل يكاد يكون مـــتعادلاً بيـــن الـــثلاث . عاد بنوع آخر من المربى ، وبسرعة جلس بجواري .. يطعمني من جديد .

- كفاية .. أصل ..،.. استني بس

- دا تفاح

- حلو .. كفاية

ملت عليه هامسة : عندي سكر .. ماتقولش لماما

: بلا سكر .. بلا عفريت

يهم بغرف المعلقة من جديد .. يقربها من فمي .. أقف مترنحة

: عايز تموتني ؟

قالت أمي بهدوئها المعتاد .

: كل الناس عايزه تموتها !!

نظـــرت إلـــى ابنته فاغرة الفم ، متفرسة في عينيها ، وهالتهما الزرقاء حولهما . فكرت أن الأخلاق والعادة السرية سيعجلان بنهايتها.

- وأنتِ عاملة إيه ؟

- أهه

- أزاي ؟

- يعني

نظرت في عين أمي ، فأشاحت بوجهها بعيداً .

- كل الناس بتقول يعني .. أهه .. مش كده ياماما ؟!

– كل واحد بقه

– بقه

قالت شقيقتي وهي عابسة

: أنتِ ليه مش بتركبي (الانسر) عندك ؟

همستِ إليها : أصلي أنا بحب صوت الأنفاس .. في نفس اللحظة.. أنتِ دكتورة .. عارفة أن النفس ده .. !!

قاطعتني ضاحكة : يا سلام !!

ضحكت وأنا أخرج جهازي الحرارة والبن من حقيبتي .

: دا عشان المرضي .. والبن لماما .. أنا ها عمل القهوة .

أدركـــت للمـــرة الأولي أنني طوال سنوات زواجي وأنا أشرب القهوة (أللي ليها وش) كما يفضلها زوجي .. وأنني لم أحب هذه الطريقة في الصنع على الإطلاق .. بل أنني أفضل القهوة المغلية .

ظلـــت أمـــي دون كلمة ، فتجمدت مكاني أدخن وأفكر أنني دائما أفسد علـــيهم انســـجامهم. لمحت بطرف عيني يد أمي وهي تتسلل إلى أسفل وتشـــد طـــرف الفستان عند قدمها اليسرى لتخفي به قروحها المزمنة. شعرت باختناق لكوني أتوق إلى احتضانها ولا أستطيع . تطايرت أشياء غائمة في رأسي .

باب ألتصق به . من فتحته الضيقة أري وجه أمي ضائعاً، جالسة فوق الفراش ، تخبط فوق صدرها مرددة لأبي

: لسه فيه لبن .

تعتصـــر ثديهـــا في عنف .. لتتفجر القطرات فوق كف أبي الذي راح يدفـــن وجهـــه في بطنها ، ذراعاه تلتفان حول خصرها ، وبكاء طويل يـــتكرر ، كلمـــا مات أحد صغارهما . وجهي ضبابي في مرآة الحمام وأســـئلة مشوشـــة عـــن الأولاد الذين يموتون ، وشبهه إحساس بالذنب يتسلل من ملامح البنت التي كنتها .. والتي ترفض أمها بفزع أن تدعها تلمس وليدها .. الذي سيختفي سريعاً . (حجاب) صغير لا أدري كيف وضـــع بين يدي . كان يتنقل بين صدور أشقائي الصغار .. واحداً بعد الآخـــر .. وتمـــددي تحت الفراش بسرية ورهبة .. أحاول فك طلاسم الورقة الصغيرة بالحجاب .. ورائحة من موت وسوائل تتسرب منه .

أدرك الآن أن أمـــي تخفي قروح ساقيها عن عيني وليس عين الأرمل. أمي تخجل مني بكل هذا الوضوح!!
نظـــرت إلـــى قفص العصافير الموضوع عند الباب . أفكر أن غرفتي هـــناك علـــى بعد خطوة منه . تتبع عيني هؤلاء الصاعدين فوق الدرج وهـــم يدخلون إلى العيادة ، متصلبين تحت الضوء الفلورستي المقبض بعيون نصف هائمة . خيل إلى أنني قلت شيئا ما فراحوا يحدقون إلى .
قالت شقيقتي:
- بتقولي إيه ؟!
- بقول إيه ؟
- قولتي الشبكية
- الشبكية !!
رأيتها غاضبة . قلت : بتعالجي الشبكية

- أيوه ياستي

مال الأرمل عليّ هامساً : أصل قولتيها بطريقة .. لامؤاخذة !!

شعرت بضيق من ميله على .. فتراجعت إلى الوراء

- لا مؤاخذة إيه ؟!

- زي ما يكون بتشتمينا

- .....

- أه والله

بحلقت فيهم ، محاولة فهم ما حدث وهم صامتين ، أردد الكلمة سراً بطرق مختلفة .

- بس هما بيخفوا

- مين هما ؟

- أللي مش بيشوفوا

- هما مش عُمي يا بنتي .. أعتذري لأختك

- أعتذر !!

- هو كده

اقتربت من أمي هامسة

- ماما .. أعتذر لها ؟

- .....

مرت لحظات من صمت ثقيل ، وصورة حجرتي التي تحولت إلى مكان لانتظار المرضي تفلت من مكان ما ، وتنتصب أمامي وحيدة .. لايشغلها سوي الأريكة .. وكلمات قديمة ترقد بين حواشيها . زخات من

مـــاء مقـــبض تخترق أذني .. متسللة من الغرفة العائلية .. وحمام أبي الأخير. كيف غفوت هناك بين جنون الماء .. والجسد المسجي ؟!

– أنتِ تجلسين في غرفتك .. تتصنتين علينا وتضحكين!!
– تعرف أنني أقرأ كالعادة يا أبي
– أنا أيضا أقرأ
– أنت من علمني القراءة

يلمح مكتبتي من الباب الموارب ، الفاصل بين الغرفة العائلية وغرفتي .. يحكي أشياء مشوشة حول الكتب ثم يقول فجأة:

– بك شئ من أمك
– كنت أظن أنني أشبه جدتي

يصمت مرتبكاً ... ثم يقول بغموض:

– هي دي المكتبة ؟
– أنت جبتها لي من المحل
– كبيرة كده ؟!
– .....
– كل الكتب بتاعتك ؟
– تتفرج عليها ؟
– .....

أربكنـــي ارتباكه . قلت أشياء مشتتة حول القراءة التي يحبها هو أيضاً. كـــان يضـــحك محاولاً نسيان شئ ما. بعدها ... لم يعد أبي ينظر في

وجهـــي كلمـــا تحدثـــنا ، تناقصت الكلمات بيننا شيئا فشيئا . ولم يدخل غرفتي أبداً .

في مساء بعيد .. ذهبت أمي بصحبة شقيقتي والخادمة إلى الطبيب.
أخرجتنـــي مـــن غرفتي الفوضى الهائلة التي أحدثها أبي في المطبخ، ورأيـــته يتخـــبط وحـــده محاولاً تجهيز طعام له . رحت أراقبه وأفكر صامتة .

- لم تطلب مني !!
- تصورت أنكِ .. هذا شئ بسيط على كل حال .
- أنت تطلب من شقيقتي كل شئ !!

فـــي الحجـــرة العائلية راح يمضغ طعامه وينظر بطرف عينه إلى باب حجرتي الموارب في صمت . أراقب من حجرتي جانب وجهه المنعكس فـــوق المرآة .. وأفكر أننا لم نتحدث معاً وحدنا إلا فيما ندر. شتات من كلمـــات عن أشياء يومية ، بل إنه لم يعد يتباهي بآرائه السياسية أمامي كما كان يفعل حين تجتمع الأسرة كلها . كنا غريبين.

قلت لأدخل المرح عليهم :

- فاكرين لما نمت فوق الكنبة .. وصحيت لقيت نفسى وسط العيانين .
- .....
- كان لازم حد يصحيني .

حيـــن حولت أوراقي من قسم النقد بأكاديمية الفنون إلى قسم (المكياج) كانت شقيقتي في عامها الأخير بالصف الثانوي . في ليالٍ عديدة، تجلس بيـــن يدي لأصنع من وجهها وجوها شتى . لا أدري كيف قفزت (مريم العـــذراء) بيننا ذات ليلة ، فرحت أبدل من وجهها .. ألبسها ثوب النوم الفضفاض الخاص بأمي . كانت أمي ترتدي هذا الثوب عقب وفاة إحدى صغارها. سميته أنا (ثوب الرحيل).

وضـــعت فـــوق رأسها شالاً أزرق وأطفأت المصباح ، وجعلتها ساكنة وسط شموع مضاءة .

دخلت أمي لتبتسم مأخوذة في البداية .. ثم راحت تذكرني بفشلي (شهادة والسلام) .

بعد التحاق شقيقتي بكلية الطب لم تعد تجلس بين أصابعي للعبة الوجوه . أصـــبحت (الدكتورة) من أول يوم . وقام أبي بتبديل اللوحة النحاسية فوق باب الشقة ، من (تاجر موبليا) إلى (خبير أثاثات) ثم لوحة أخري مكـــتوب علـــيها اســـم شقيقتي ، يسبقه (الدكتورة). في لحظة بعيدة ، أخبرتني بكبرياء أنها لا تشبه مريم العذراء أبدا .

* * *

قالت شقيقتي بفتور: لسه بتكتبي شعر

نظرت إلى أمي وقلت : لا

فكرت أن شقيقتي في تلك اللحظة لا تشبه أحداً على الإطلاق.

- هاتخديها جد

- جد.. الجد ..

قال الأرمل ممتلئا بالعافية .

: الله يقويكي .

أتأملـــه وأفكر أنه واثق دائما . حين انتبهت للكارت الذي جلس فوقه .. صعد الغضب إلى رأسي .

- قوم .. الكارت .

- كارت إيه ؟!

- قوم وخلاص .

أتذكـــره وأنا أراه من نافذة أمي .. بغرفته .. مستغرقاً في نوم عميق .. يحتضن الوسادة برعونة شاب . أنظر في عينيه .. يبتسم تاركاً مقعده . أقبض على الكارت .

أجلس بجوار أمي ملتصقة بها . يعود الصمت ثقيلاً . أفكر أنني أصبت بجنون خبيث .. كأنه لم يبدأ بعد.. لكنه.. هناك . لفتة واحدة فقط.. و!! يـــرتفع ثوب أمي طفيفاً ، يظهر جزء من رقعة حمراء .. دامية . أمد يدي خلسة أشد طرف الثوب . أهمس لها :

- أنا هاطلق .. مش هازعج حد .. مش هاجي تاني

- كل ما تيجي تقولى كده .. سنين .. وأنت كده

- أزاى سنين ؟

- سنين وخلاص

تهرول إلى الباب ، تكتشف للمرة الأولى قفص العصافير .

: إيه ده ؟

تقافــزت العصـــافير في هياج شديد ، تركته أمي يسقط فوق الأرض ، وهي تحدق فيه بفزع .
أنحني الأرمل ، والتقطه برفق .
: دى عصافير كتير .. بتاعتك ؟
ألتقط برطمان المربي ، أهرول به إلى حجرتي القديمة. أقف عند بابها. أتــأمل أريكتى ورجلاً مريضا يجلس فوقها متكأ بذراعه فوق وسائدها فوق عينيه (نظارة) لها زجاج داكن . أخمن أنه لا يرى سوي طفيفاً . كـــان (التليفزيون) مداراً أمامه .. صغيراً ومشوشاً . فوق الشاشة راح وجـــه (ياسر عرفات) يتحرك بغموض .. وسط آخرين . الشفة السفلى متدلية ومرتجفة .. ونظرة ثابتة في العين .. ذاهلة .. وغارقة في طيف ابتسامة .
أتجمد مكاني وأنا أنصت لهمهمات سرت بين المرضى . أفكر في الذين ينهضون الآن .. هناك .. في فلسطين .. مكتملى الأرواح .
يقفــز وجه العسكري .. صاحب الصورة ناصعاً .. قطرات من العرق تتساقط منه . كيف ومتي ألتقط له هذه الصورة ؟
أهرول إلى شقيقتي وهي تقف أمام النافذة التي تطل على صالة الأرمل .. أنظــر معها هناك .. حيث الترتيب الأليف والمنسجم للأثاث . أتمني أن تــنظر فـــي عيني طويلاً ، كما كان يحدث في الماضي. أستحضر النظرات العصية على اللقاء التي تتساقط من حَوْل الأستاذ .
تهــيم فـــي رأسي كراهيتي الملتبسة له .. وذلك (الحَوْل) الذ ي يضغط فــوق روحـــه .. وشعور مربك يتملكنى من أنه يراني ولا أراه . أتتبع روحه الغائرة .. أفشل . لكنه يستطيع أن يسرب (العجوز) بكل سطوتها

تحـــت مســـامه فـــي لحظة خاطفة .. لتختفي تلك الهنات ذات الطابع الأنثوى والتي يطلقها أحياناً .

أتذكر بتشوش كلمات واهنة حول الكيمياء، وارتجاف خفيف فوق شفته السفلي وهو يخرج من جيبه أحمر الشفاه الوردي .

– ولكنها تضع لوناً آخر منذ سنوات .

– كان هذا لونها المفضل .. هل يمكنك أن تذكريها به؟

أدس أحمـــر الشـــفاه فـــي حقيبتي . أهمس لنفسى أنه الوردي .. ولكنه الباهت والأكثر ذوقاً. أحدق إليه باحثة عن نظراته . أتذكر بوهن أشياء قالهـــا عـــن عين المغنية ، وتأكيده على الشرطة الممتدة مع الجفن إلى الخارج قليلاً بالقلم الأسود ، وارتباك حيرني طويلاً يتسرب إلىّ.

أفكـــر بالطـــريقة التي قال بها أني (ست محافظة) وهو يقف هناك عند الحمـــام، متكئاً بإحدى ذراعيه إلى الحائط والأخرى تهم بفتح سرواله. الـــذراع التـــي انفرطـــت منه ترفعاً.. قديماً.. لا يخلو من بذاءة . كان يحتقرني في تلك اللحظة .

– أنتِ بتبصي في عيون الناس إلا أنا !!

– إزاى ؟

– بصيلى .. النهارده !!

– النهارده إيه ؟

– لا .. مش النهارده

– .....

- عنيكي أتغيروا !!
- تفتكري
- جارتي .. لا .. أنا شفت جزمتين كاوتش
- .....
- متعلقين في حبل غسيل
- جزم !!
- كنا بنلبسها في الألعاب .
- .....
- ريحة الطباشير
- طباشير !!
- بتحبي خطيبك.. الدكتور ؟
- شوية كيمياء ويخلصوا
- الكيمياء .. الملعونة

أدرك أن بوجههـــا جديدا لا أعرف معناه .. كأنه كان هناك دائما وكنت أنساه .

أســـمع الأرمـــل وهـــو يحكي شيئاً ما حول زوجة البواب. يلتفت إليّ مستطرداً:

- بقيتوا أصحاب ؟!
- .....
- بيشوفوكي قاعده معاها .
- .....
- بتتكلموا في إيه ؟ دي مش هاتفهمك .

تستطرد أمي كأنها تحدث نفسها .
: يعني هي أللى فهماها !!
يضج الأرمل بالضحكات قائلاً : دى نايمة على طول .

* * *

غـــاب زوجهـــا في بلد بعيد. سنوات ولم يعد ، تعمل نصف النهار في خدمـــة بـــيوت البـــناية . قبل حلول الليل تمضي إلى فراشها وتغمض عينـــيها. ولأمر ما لم يطالبها أحد بمهام الزوج الغائب. حين أروى لها حكاياتـــي ، تلـــك التـــي تؤرجحها بين نوم ويقظة، تقول أنها تعجبها . أكررها عليها . تمضي في غفوة لأعود إلى إسترسالي ، عيني لا تفارق صورة التوأم المتوفيين الموضوعة بجوار الفراش . قالت ذات ليلة أنني منذ أن التقطت لهما تلك الصورة وأنا أواصل المجيء .
: همـــا أللـــى بيجيبوكي.. أنت بتنامي هنا أكثر من بيتك والنبي حبيت نومك وحكاياتك .

هرولـــت شقيقتي إلى الممرضة التي همت بهبوط الدرج . مضيت إلى حجرة أمي ، أحاول أن أتنفس بعمق .
خادمـــة الأرمـــل تتحرك في الغرفة باعتيادية . أتأمل أشياء أمي كأني أراها للمرة الأولى . وجه الأم الفلسطينية وهي تفتش عن إصبعها ذاهلة يتلبســـني . تفســـح لـــي الخادمة مكانا يسمح بفتح الخزانة . أفتش في

أدراجها ، أقلب كل شيء بين يدي.. أراها تختلس النظرات إليّ بطرف عينيها .

– بتدورى علي حاجة يا مدام ؟

– بشوف

يقع بين يدي (المايوه) الأسود الذى اشتراه أبى من أجل أمي ذات يوم . كم أربكها طويلاً !!

– يعنى دا ليا ؟!

– ليكى

– دلوقتي ؟

ينظر أبي في وجوهنا، ثم يستطرد مشيحاً بوجهه عنا

: أهه .. ليكي وخلاص

لا أعـــرف متي بالضبط بدأت أمي تغطي ذراعيها .. وتبدل من قصات فســـاتينها .. تطولها وتخجل.. ترتدي (الإيشارب) ثم تخلعه .. لترتديه من جديد، في إيقاع غير حاسم .

عـــام بكاملـــه ونحن نعيد قصة (المايوه) نحورها ونفسرها ، وتظل هي القصة الأكثر التباساً .

: عمـــره ما قالي ألبس مايوه.. يبص على الناس ويقول الستات عماله تحط الإيشاربات .. ومش فاهمة عايز إيه !! لو طال يخبي كل جسمي كان عمل .. لكن هو .. مش فاهمة!!

تحفظـــه طوال سنوات في الخزانة .. تخرجه .. تتأمله خلسة حتى يلمع وجهها بألق عابر .. سرعان ما يختفي .

لـــم تعرف أمي أبدا أنني أعرف سرها .. وذلك الشاطئ البعيد، بل أننا تكتمنا القصة كلها .. بتواطؤ .

* * *

كنـــت هـــناك .. أخطو إلى صالة (الشاليه) متثاقلة من أجل كوب ماء. يتســـلل ضوء الفجر الرمادي بطيئا من خلف الستائر ، تدفعني خطواتي لإحـــدى النوافذ.. لأراها . تقف على بُعد خطوات من الشاطئ.. الماء يصل إلى خصرها.. تحرك ذراعيها قليلاً .. ثم فجأة، تتلفت حولها في حـــركة ســـريعة . كانت أمي ترتدي (المايوه).. جسدها المترهل يتلألأ ســـراً بالمـــاء . فجـــأة ألمح أبي بعيدا يتهيأ للصيد بسنارته . أفكر أنه يســـتطيع أن يري أمي بالرغم من الصخور التي جلس خلفها. أخمن أن أمي تراه أيضاً . لكنهما لن يتحدثا في ذلك أبداً .

أفكـــر أن أبى دائماً ما يقف هناك محدقاً إلى باب موارب للتحرر.. لا يتحرك خطوة إلى الخلف أو إلى الأمام.

– غرقـــنا عـــبد الناصر فى حبه لغاية ما وقعنا.. وجه السادات يشقطنا لبعض .

– خلاكو تكسبوا.

يقهقهـــة طويلاً وسط دهشة أمى .. ثم يمضى ليدور حول الغرف وهو يطلق كلماته وقهقهاته الساخرة .

: بكـــره بناتك يتجوزوا تجار عُملة ولا مُقرأ أعمى دلوعه الأغنية زى جوز أمى.

تعـــود خادمـــة (الأرمل)، وفكرة غامضة تلح علىّ، أن ثمة شيئاً علىّ الاحتفاظ به!! آآخذ معي صوراً أخرى، وقد حولت عدداً منها إلى بيتي .. مالى والصور ؟!

– ليس لدى صور معكم .. فقط وأنا طفلة !!

– أنتِ تصورينا جيداً.

– أنتِ تظهرينا أجمل .

تبحلق الخادمة في زجاجة العطر بين يدي .

– ماما عمرها ما غيرت (البرفان).

– .....

– أنت بتيجي كل يوم دلوقتي ؟

– أهـــه .. أصـــل البيه شغله قليل.. غاوى يعمل كل حاجة بأيده .. لو تشوفي بيعمل إيه في التحف .. زى الساحر .

– الساحر.

أعـــيد زجاجـــة العطر إلى الخزينة . أفكر في أصابع الأرمل وسحره. أعود إلى الصالة .. في طريقى أتخبط به وهو يخرج من الحمام . أفلت من تحت ميله بصعوبة . أجلس بجوار أمي وأراقبه .

– هي أختي عندها كام سنة دلوقتي .. أربعة وثلاثين .. هه!!

– أختك ليها ظروف

- كرهتوني كلكم .. لما وصلت للسبعة وعشرين وما اتجوزتش!!
- .....
- أقفل الباب شوية يا ماما
- خليه

منذ فتحت شقيقتي عيادتها وهم يواربون الباب. من فتحته الضيقة.. التي تتسع أحيانا بدخول الأرمل وخروجه.. يراقبون أصحاب العيون الشائكة وهم يصعدون ويهبطون الدرج .

راح الأرمل يبحث في صندوق قديم مصنوع من الأرابيسك . كان درة أبـــي ، يضعه فوق مكتبه في محل (الموبيليا) يفتحه بفخر أمام الزبائن، يخرج منه أشياءه الدقيقة . (البايب) الخاص به. دفتر صغير داخل علبة فاخرة.. وقلمه الذهبي .. ذلك الذي أهداه له عمه الوحيد الذي كان من كـبار الأعيان. استولي على أرض العائلة بالشراء والتحايل.. في عهد الســادات، وصولاً بمشروعات شتي تظلل عليها أيادى خفية من صفوة المجتمع الرأسمالي والاقتصادي . كم كرهته جدتي بعمق .

تراكمـــت الديون علي محل أبي بعد موته، وامتلأ بيتي بالموبيليا كجزء مـــن إرث تصرفت فيه أمي على نحو عشوائي، وزحمت بيتها بالمقاعد والطـــاولات المتنوعة الطابع. وتلك المكتبة الكبيرة التي امتلأت بكتب شتي لا أعرف حتى الآن من أين جاءت بالضبط . أما كتب أبي فكانت

عن عبد الناصر ــ نابليون ــ الثورة الفرنسية ــ سلامة موسى ــ الشيخ سيد قطب. وكثير من كتب المتصوفة القدامى ، مجموعة من الدواوين لشوقي وحافظ وعلى طه .. ثم المتنبي في مجلدات قديمة أعيد ترميمها. كتب عن سير الزعماء وقصص الشعوب .. وثلاث نسخ من رواية (توفيق الحكيم) عودة الروح . وتلك الكتب التى دائماً بلا أغلفة لفيكتور هوجو وتشارلز ديكنز.. ثم مجموعة فاخرة من الأسطونات لخطب (عبد الناصر) وأخرى للغناء – من الشيخ أبو العلا حتى أم كلثوم وما بعدها – تقول أمى: بعدما أتجوزت والدته دخل عليهم والغضب طالع من عنيه، وراح شايل الجرامافون والأسطونات القديمة وخرج بيهم يجرى ويقول (: إلا الأسطونات... دى ريحة أبويا).

بعد وفاته فتحت صندوقه واكتشفت أن معظم خطاباته لأمه ــ تلك التي استردها بعد موتها ــ تبدأ غالبا بـ (أنا غاضب منك) واستطرادات غامضة عن الأرض التي أصبح مصيرها أكثر غموضاً.. ثم زوج أمه!! أعرف أن أبى لم يغفر لأمه هذا الزواج أبداً . كان كتوما.. سرياً .. يحدق إلينا طويلاً ثم يختفي وسط ضحكات عابرة يطلقها في الحجرات المتسعة.

– تصورى .. جدتك عندها كل الهدوم الداخلية دى !!
– وليه لا ؟ .. دا جسمها
– البلد كلها عارفة دولابها المليان صابون وبرفان .. وحاجات ثانية. كل ده عشان واحد أعمى ، الستات بتحبه لصوته

– دا بيقرا القرآن يا ماما
– وقراه على جدك لما مات .. ما بيرحش إلا للأغنيا..
أبوكى بيكرهه عشان كده . بيقول دايماً.. راجل وسخ بيفرق بين الميتين

تنظر عند قدمي وهي تسترق السمع لتلك الضحكات الصاخبة بين جدتي وأبي .. الآتية من إحدى غرف الشاليه.
غـــيوم تعبر وجهها .. تحكي بخفوت أشياء مشوشة عن هرب أبي من أمـــه وهو لا يتجاوز العاشرة إلى القاهرة ، وإقامته عند أحد أبناء عمه والذي شغل وظيفة مرموقة في إحدى الوزارات ، وزوجته المنحدرة من أســـرة عريقة ، وبيتهما الذي كان مسرحاً للعب الورق والخمر والسهر وصفوة المجتمع .
: هي دي الست أللي جوا .. أللي تسيب طفل يتربى في الجو ده علشان عرسانها .
فـــي السنوات الأخيرة ، أصبحت أمي تبالغ في حشمتها أمام أبى.. تلك التي شارك فيها بنصيب كبير .. ليشهرها أمام جرأة جدتي ونزقها .
– الفستان مقفول قوى؟
– يعنى.
– يعجبك؟
– .....
– كويس ولامش كويس
– أنتِ حرة

قـــي قريتنا ليلاً دفنا أبى . هناك أكتشف من يقوم بالدفن أنه أدخله إلى قبر أمه خطأ .

قالت أمي وهي تتكتم شيئاً ما وسط ذهولها .

: سيبوه .. كانت بتنادي عليه !!

تنحنـــي صوب القبر ضائعة .. منهكة ، تحدق إلى قطعة الرخام وسط أضواء مشوشة تتطاير من (الكلوبات) المحمولة والهمسات المقبضة.

ها هي أمه تنتصر عليها برغم اجتهاد أمي في محو صورتها من رأس أبى .. طوال حياتها معه .

لماذا كانت تنظر هكذا حينما أدخلوه إلى قبر أمه خطأ ؟

لـــيس الغضـــب والحزن وحدهما كانا بعينيها . أيضا كان هناك حسد.. هامد .. في الأعماق .

تفرســـت في انحناء الأرمل وهو يحمل الصندوق الذي اشتراه أبي من محل (العاديات) الخاص بالأرمل .. ودفع فيه بسخاء .

* * *

كانت العربة تسير وسط الظلام ، تحمل أبي ممدداً في تابوته. في الأمام كان الأرمل جالساً بجوار السائق .

فـــي عربة أخرى .. التصقنا ثلاثتنا ببعضنا .. أمي متكأه برأسها على صـــدر شقيقتي .. فيما أتاح لي مسافة صغيرة استطعت عبرها اختلاس الـــنظرات إلـــى وجـــه أمي المعتم . تعلقت عيني بالعربة التي تقل أبى طـــوال الطريق .. تتأرجح روحي بين رأس الأرمل الكبير .. وتابوت

أبى .. الساكن خلفه ودخان السجائر هائماً فوقه . كان ذلك يشبه سكوناً لا نهائي .. سُفلي .

* * *

أفكـــر أن الأرمل ودود وأنيق على نحو مسرف. في روحه يرقد شيء سري .. بهيمي ومختال . تتملكني رغبة في ضربه فوق مؤخرته.
جـــاءت الابـــنة بـــبرطمان آخر للمربى وشعرت بنظرات أمي تخترق ظهري . فكرت أن أغادر .
: أنا أقدر اشتغل كويس .. أعمل مكياج للممثلين تاني أكسب كثير .. و .. ممكن .
أفلتت ضحكة خليعة من ابنه الأرمل ، ملت عليها بصوت مخنوق
: خسارة أن مافيش في الدين بتاعنا مكياج للميتين ..
نظـــرت فـــي عيني ساهمة ، الشفة السفلي متدلية قليلاً .. وفوق وجهها تعبـــير يشـــبه ذلـــك التعبير الذي كان فوق وجه (المجنونة) حين قالت كلمتها الوحيدة (الشجر).
شـــعرت بالـــندم والخجل وأنا أنظر إلى أمي . أتساءل صامتة لماذا أنا غاضبة إلى هذا الحد ؟! كلماتها البعيدة تتردد في رأسي .
(: طول الليل قاعدة قافلة الأوضة على نفسك .. وبالنهار تبصلنا كأننا مجرمين)

أديـــر رقـــم والدة زوجي .. أضع السماعة دون أن أكمله . أدخل إلى الحمام ..

كـــان المنشـــر بالداخل ممتلئاً بإيشاربات مختلفة الألوان .. أفتح النافذة، أنظـــر إلـــى الليل في السماء البعيدة . تتحرك الإيشاربات بفعل الهواء حركة سرية . رائحة (الديتول) التي يلفظها الحمام تذكرني بجسد أمي. أتمني لو أحممها بيدي وألامس قروحها . أدرك أنني لم أرها عارية منذ زمـــن طويل . فقط صور غائمة لهذا الجسد كيف أصبح نهداها اللذان أرضعاني يوماً ؟

: صدرك غريب .. كأن مافيش حد ..!!

أبحلق في (أروى) أتمتم : لوحده ؟

تهتف كعادتها :

– صح .. أنت بتروحي دايماً للكلمة الصح .

– غريبة .

– وحيد .. متوحد .. لا .. وحيد .

تحـــيط كتفـــي بـــزراعها : مش عايزه تروقي بقه .. أوعي تخلي حد يسرقك .

* * *

اصطدم بأمي وأنا أخرج من الحمام .. تبحث عن شيء ما فوق المرآة .

– كل الإيشاربات دي !!

- بتاعة أختك .
- أنا عايزه أقولك حاجة .
- هنا !!

تجلس فوق المقعد ، وتنظر متصلبة إلى الأرض اللامعة .

- أنا وجوزي ..
- .....
- جسمي .. مافيش بينا .. زى ما أكون عمرى ماحسيت بحاجة..
- .....
- كان بيحاول .. فيه حاجة حصلتلى .

أشـــعر بقلبـــي يـــدق سريعاً . أراها مازالت تنظر إلى الأرض اللامعة وكأنهـــا تبحث عن شيء ما . خيل إليّ أنها همست بكلمة وهى تنحني وتلامـــس إحـــدى ساقيها . كانت تشبه شقيقتي في تلك اللحظة . لكني سرعان ما اكتشفت أنها تشبهني أنا وليست هي .

* * *

التقط الحقيبة والقفص وأنا أتحاشى النظر إليهم . تقف شقيقتي في حلق الباب . الأرمل وابنته يتفحصان القطة ويقلبانها .

- إيشارباتك حلوة .
- صحيح ؟
- اتحجبتي ؟

- على خفيف .
أهرول فوق الدرج وأنا أسمعهم يرددون (لا إله إلا الله)

منذ سنوات قصيرة .. كانوا قد كفوا عنها . أفكر في حجاب شقيقتي أللى (على خفيف) ثم دخلوها العيادة بدون إيشارب ، أتذكر أمي وتأرجحها في ذلك الأمر . تقفز أمامي تلك الصورة .
حمام سباحة .. وإيشاربات محلقة في الهواء ، تتلقفها أيديهن في نشوة عارمة وقد التف بعضها حول أفخاذ بعضهن ورحن يتمايلين على موسيقي متخيلة حول الحمام ، يدفعن بعضهن في الماء .. أتأملهن وأنا استحضر لحظة دخولهن الحمام .. أثوابهن الثقيلة .. جهامتهن الجاهزة.. حصار الوجه بتلك الإيشاربات التي راحت تتلقفها الأيادي . أجسادهن المنفرطة في الماء . حيث لا رجل هناك يتلصص . لا رجال اليوم .. الحمام للنساء فقط . تسحبني عيونهن وترهل أجسادهن إلى حنان قديم في الروح . اندفع معهن.. وأشجار كثيفة .. عالية .. شاهدة علينا.

* * *

أهبط نحو البدروم ، يتلبسني فجأة وجه العجوز، شبحياً ، هائماً. وضيق حيرنى أياماً طويله يتسرب إلىّ. خمنت بعده أن بي خللاً لا يقبل تدخل الأستاذ في مساحيق المغنية ، وأصابعى المضحكة . كان في منطقة ما مـــن ذاكرتـــي يتكون شئ سري حول طلاء الشفاه والجسد . ذلك الذي ســـلله الأســـتاذ إلى الحكاية . ثم زوجي ونظراته المظلمة .. تلك التي تحاصرني وتضغط علىّ .

ينفـــتح الـــباب الذى دفعته برفق . زوجة البواب الغائب .. ممددة فوق فراشـــها مـــثل شيء مجهول . رائحة العطن الحميمية تخدرني ، أتمدد بجوارهـــا .. وطمأنيـــنة واهنة تتسلل إلىّ. اتشبث بعين أمي .. تختلط بـــنوافذ قديمة لا أعرف أصحابها .. مغلقة ومضاءة .. بعد أن شاهدتها مظلمة مرات عديدة . كان يأتي الأمل من هناك .

تهـــيم روحـــي حول صورة التوأم الموضوعة بجوار الفراش. أغمض عيني .

* * *

كانت تحكي بأنفاس مقطوعة أشياء مبهمة حول عيون التوأم.

: .. ربنا افتكرهم .. بس عنيهم !!

هرولنا إلى البدروم . كانت عيونهما ترفضان الإغلاق!!

قلبـــتهما شـــقيقتي كطبيبة مبتدئه وسط ذهولنا، وتأكدت من الوفاة. حين سبلتهما من جديد .. عادت عيونهما إلى ما كانت مع مواربة خفيفة تشبه الـــنعاس . همهمـــت أمي بآيات من القرآن ، ووقف زوجي عند الباب يدخـــن . صعدت شقيقتي وهى تخبرنا أنهما سينغلقان حتماً برغم غرابة الحالة .

رحنا نفحصهما أنا وأمي .. كأنهما يتمتعان بكامل الصحة . خيل إليّ أن جسديهما أقوي كثيرا من كونهما لم يتجاوزا الشهرين سوي بأيام قليلة . دفعتنـــي أمـــي بوجه ذاهل كي أبتعد .. ثم أفترشت الأرض ، وأمرت أمهما بصوت متصلب أن تأتي بهما إلى حجرها .

رحت أنصت إلى خطوات زوجي في الخارج وهي تتعثر في الظلام . كـــان أمراً غريبا أن يبدو هذا واقعياً . كم هي بعيدة تلك الخطوات بقدر ما هو قريب ذلك الموت الراقد فوق حجر أمي الآن !!

قالت امهما أشياء حول عدم وجود أى أثر لهما من أجل زوجها الغائب .. ولو صورة .

كـــان وجهها غائبا .. تنظر في عيني .. وكأنها ستقول (احكيلى تاني) لأعيد عليها شتاتى من الكلمات .

أتخبط بزوجي في طريقي إليهم، في المرآة الصغيرة بالمصعد فاجأتني عيـــناي .. يـــا إلهى .. من أين جاء هذا الاتساع ؟ أشهق طويلاً.. يدى قابضة على (الكاميرا) التي أحضرتها من الشقة من أجل صورة للتوأم.

أتجنـــب الـــنظر إلـــيهما .. وأنا أحملهما وأعيدهما إلى الفراش متكئين برأســـيهما إلـــى وسادة عالية . فقط .. نظرة أخرى إليهما لأنتهي في الحال . لكنني ألتقط صورة .. لتتوالي شهقاتي داخلي.. نائية .. ضائعة.

حيــن أعدناهما إلى حجر أمي راحت أصابعها تلامس العيون، الغارقة فــي الانتــباه ، نتكتم نحن الثلاثة تواطأنا . التصقت بأمي، رأسي فوق إحدى ساقيها المفرودتين ، أشاركهما تلك الهزات الواهنة .. المهدهدة .. والتي راحت تضفي على اللحظات .. امتداداً .. قدرياً .. لا نهائياً .
قالــت أمــي بعدها أنني غرقت في النوم فوق ساقيها ، ولم أتذكر حتى الآن كــيف صعدت إلى الشقة . قالت أيضا أن أول نور للصباح سقط فوق عيونهما المفتوحة لدقائق .. ثم أغلقتا إلى الأبد .

بعد أن صعد بي زوجي ، عاد إلى أمي ، جلس بجوارها وراح يبكي !!
– يبكي .
– نعم .
يحكــي عــن طفولته الوحيدة وقسوة والده .. ثم يقرأ عليهما آيات من القرآن . ويعود من جديد .. يحكي وينظر إليهما كأنه يروي لهما حكاية قبل النوم !!
– أنتِ بتتكلمي عن واحد تاني يا ماما !!
– مالنا عاملين كده ليه .. مش عارفين حتي رجالتنا !!
تخــتلس الــنظرات إليّ .. حريصة ألا أضبطها . كيف تراني ؟ لماذا تخشاني على هذا النحو ؟ لو أنها فقط تنظر في عيني .
: وأنتِ عرفاني يا ماما ؟
تتحسس ظهر كفها كالعادة ، وتنظر إليه كأنه لم يكن هناك من قبل.
: أنت عرفاني ؟ وأنت كمان ماعرفتيش بابا ؟

تتركنـــي وتقف عند النافذة .. أتأمل جسدها من الخلف .. أدرك للمرة الأولـــى أنهـــا فقدت كثيرا من وزنها . أفكر أننا هكذا .. يتعرف أحدنا علـــى الآخر في المحطات فقط . وحين تتوقف الحافلة هناك .. لا نعلم كيف كان الطريق .. أو كيف سارت الحافلة .

* * *

أفكر بتشوش نصف نائمة أن (عباد الشمس) في مكان ما بغرفة (التوأم) .. وأن أمـــي تـــتحرك الآن بخطـــوات غير مرئية .. تحفظ لها رشاقة ماضـــيها على الدوام وأن المغنية العجوز مازالت تغني في مكان ما .. لحناً أخيراً لا ينتهي والأستاذ يطلق لعناته في وجهي .. يتهمني بالخيانة وهو يشير إلى المغنية .. مردداً : كم هي جميلة .

أرى طفلي يدفعني بعيداً. أحاول أن أضمه إليّ.. يقاوم بضراوة. يا إلهى مـــاذا فعلـــت بطفلى ؟ أفكر بالاختباء تحت الفراش . أفتح عيني على صيحات الأستاذ وضحكاته– (: مش عارفة تغضبي أبداً!!) .

– (: أغضب !!) .

* * *

وشـــيش بعـــيد يـــتمدد داخلى .. ثم ينتشر في الغرفة كلها . أفتش عن الصـــوت ، أرى شعلة (وابور جاز) في نهاية الغرفة المستطيلة وبخار يتصاعد من إناء فوقه .. أسمع صوتي يردد : ريحة بطاطا !!

: قربت تستوى .

أري شـــابين يلعــبان الـــورق .. ينظران ناحيتي بموارية .. ثم يعودان إلى اللعب .

: أنتوا ساكنين هنا ؟

ضحك أحدهما دون أن ينظر ناحيتي .. حكي الآخر أنهما كانا صديقين للـــزوج الغائب ، وأنهما يعملان عمالاً للبناء ، وليس لديهما أقارب في هذه المدينة . الزوج الغائب هو الصديق الوحيد .

– احنا أللى داهنين له الأوضة دى .

– لونها حلو .

– دا أخونا .. أمال .

أنظر إلى الطلاء البمبي فوق الجدران .. قفص العصافير الساكن تحت صـــورة الـــتوأم .. وأمهما السابحة في نومها . يتبادلان الحكايات حول الزوج.. لتلتبس، وتعاد من جديد .

يدخـــل وجه السيدة بكابها التركي إلى الحكايات ، وأفكار مشوشة حول قبلاتها المفقودة . منذ متي وأنا أيضا لم أقبل رجلاً ؟ أفكر أن المستقبل سيأتي بلا قبلات .. ترعبني الفكرة . البشرية كلها دون قبلات!!

تسألني المغنية : ألا تشعرين بأى رغبة .. إلى أين يمضى جسدك ؟

– حلمت مرة برجل يقبلني .. كان ذلك رائعاً .

– من كان صاحبها ؟

– لا أحد .

– لا أحد !!

– عبير لقبلة خالصة.

– هل يمكن ذلك ؟ قبلة خالصة !! شهوة !!
– الشهوة . أكثر الكلمات التباساً .
أحكـــي عن رجل .. فنان .. لا يكف عن مطاردة النساء . كن ينجذبن إليه لما يتمتع به من جاذبية جنسية خاصة .
عـــندما تنتهي اللعبة الساحرة ويأتي وقت الجد ، يكتشفن في الفراش كم هـــو بـــائس . يتركنه .. ليعاود لعبته من جديد مع أخريات . لم تستطع الفضـــيحة أن توقفه من تكرار ذلك السر السحرى الذى يسبق الفراش .
كـــان يعـــرف أن الشـــهوة تتجلـــي في أرقى صورها عبر طريق من الإغـــواء. كـــن يهربـــن بفزع مكتوم ، غير مصدقين كل هذا التظاهر بالفحولة. قالت لي أحداهن .
: حين كان ينظر في عيني .. كان جسدى يتفتح كأنه يتعرف على نفسه من جديد .. أنه محترف من نوع خاص . ما أروع الثمار التي كان يَعِدُ بها .. والتي لم تكن أبدا فوق الشجرة !!

* * *

أخرج أحدهما البطاطا من الماء ، وضعها في طبق كبير .. ثم أعطاني حبتين . جلست بجوارهما وأنا ألتهمهما وأراقب لعبهما .
– تلعبي ؟
– على حاجة ؟
– أى حاجة .

أخرجت الكارت من جيب القميص .. قلت وسط دهشتى من نفسى .

– على ده .

– إيه ده ؟

– لو كسبته .. تتكلم بيه في التليفون .. أى بلد بعيدة .

– أى حد ؟

– طبعاً .

أخذنـــا نلعـــب وأنـــا أشرح لهما فوائد الكارت .. انتهي الأمر باقتسام الكـــارت بيـــنهما ، بعـــد أن خسرت في كل دورة مع كل منهما . قال أحدهما وكان لا يكف عن الضحك :

– بس هانكلم مين ؟

– أى حد .

– دا أنت حمار .. رجع الورقة للست .

راحا يتشاجران حتي تشابكا بالأيدى كأنهما طفلان.

أخذ الضاحك يصرخ في رفيقه .

: مافيش حد نعرفه يا حمار .

جلـــس مهـــزوماً فوق الأرض يحدق إلى الكارت حتى انشرح وجهه ثم مضى يخرج من جيبه قصاصات صغيرة .. مهملة ويبحلق فيها.

: أهه .. لاقيته .. شوف .

قال الضاحك : مين ده ؟!

– دا المهندس أياه .

– المهندس !!

– قابلناه من سنين .. فاكر .. بتاع الشاي والسميط .

حكي أشياء حول المهندس الذي سافر بعيدا .. والذي يجب الاتصال به والاطمئنان عليه .

: كان كريم معانا .

قال الضاحك مستسلماً : باين كده .

همهمت الزوجة النائمة بشيء ما .. فرحنا ننظر إليها . جلست فوق فراشها .. وراحت تبتسم لنا طويلاً علي نحو حميمي ، ثم عادت إلى نومها .

* * *

فـــي الســـنترال .. وضـــعت الكـــارت وأدرت لهما الرقم .. وابتعدت خطـــوات. تســـللت إليّ من الكابينة كلمات حول الشاى والسميط .. ثم صرخات وسباب .

: لازم تفتكر يابن الـــ ....!!

اختـــبأت خلـــف جدار لإحدى البنايات .. اختلس النظرات نحوهما وقد تشابكا بالأيدى من جديد أمام السنترال . كانا يتكوران فوق الأرض .. ســـراويلهما الرخيصـــة ، لا أثـــر للونها تحت الضوء الفلورسنتي . ثم انفصلا .

ظـــل الشـــاب صاحب الاقتراح جالساً فوق الأرض ، يخرج قصاصات صغيرة من جيبه ويحاول قراءتها ، بينما وقف الآخر على بعد خطوات منه بعيون خاوية .. دون ضحكات هذه المرة .

اقتربت من الجالس .. قلت:

– لو حبيت كلمني في التليفون

– أنا وهو ؟

– أنت وهو

– دا حمار

– .....

– الراجل رد عليّ .. عرفت صوته .. بس بعيد .. عندك ورق تاني ؟

فهمت أنه يقصد الكارت .

– عايز تاني ؟

– نلعب ونخده .
– ولو كسبت أنا ؟
– شوفي أنتِ .
نظـــرت في عينيه التي كانت تشبه في تلك اللحظة عين طفل تتلمس ما حولها بعد ساعات من ولادته .
قفـــزت إلى رأسى القبلات من جديد . فكرت بسخرية أن أقايضه بقبلة كمـــا كـــنا نفعـــل ونحن أطفالاً .. إذا ربحت سوف يعطيني قُبلة ، وإذا خسرت سوف أعطيه أنا القُبلة .
وربما تكون هذه هي آخر قُبلة لي قبل أن يأتي المستقبل السعيد.
– صاحبك دا بيضحك وأنت لا !!
– هو كده على طول .
– اسمع .. أنت شكلك حلو .
تلفت حوله ثم قال : الله يخليكِ .
– عايز تلعب ليه تاني ؟
تلفت مرة أخرى وقال : أبداً ..
تنبهت أنه يشبه كثيرا (شكرى سرحان) .. الذي لم يكن نجماً بالنسبة لي فحسب .. بل شقيقاً للبنات جميعهن الأخ الأكبر كما كنت أظنه دائما في طفولتي .

تـــوارت القبلات خلف سياج من الألفة الأسرية .. السابحة في الأبيض والأســـود . تأملت وجهه وأنا أفكر أن القُبلة جوهرية . جسر موصول بالروح قبل الجسد . أتخيل الأستاذ مقهقهاً ، ساخراً ومردداً

: القُبلة مفتاح الكيمياء .

* * *

في صباح بعيد .. سمحت لي أمي بالمبيت عند إحدى زميلاتي من أجل الاستذكار للثانوية العامة . كانت فقيرة جداً وجميلة جداً ، تعيش وأمها العجوز في حجرة بطابق أرضي ، لا يدخلها النور والهواء. بل تبدو كأنها صندوق ملقي علي قارعة الطريق .. يتوسطه سرير نحاس منتصبا فوق أرض ترابية .. حوله قطع باليه من أثاث بائس . بعد استيقاظنا قالت زميلتي :

– تفطري طعمية ؟

– ماشي .

أطلت من باب الغرفة المطل مباشرة على الشارع ونادت على شاب صائحة .

: روح لعمك (شكرى) وهات منه جنيه ، اشترى بيه طعمية وعيش.

حين شعرت بالحرج قلت: معايا فلوس .. بلاش تخدى من حد.

– لا .. دا مش حد .. دا شكرى سرحان .

– شكرى سرحان ؟!

– أه والله .. بتاع السيما .. بيته القديم هنا. بيجي كل أسبوع .. على القهوة أللى قدامنا .. يقعد مع الحبايب .

– هاياخد منه جنيه ؟!

– قولى ياباسط .

ظللـــت مـــأخوذة بحكاية الجنيه .. وعاد إليّ من الطفولة (شكرى أخو البنات)، يجلس خلف الباب ويطعمنا .

* * *

ابتسم مشيراً إلى القفص الساكن بين يدى ، وكان يشبه شكري كثيرا.

– في إيه ؟

– عصافير .

– نامت ؟

أدركـــت أننـــي لم أطعمها خلال ساعات ، وأنها في طريقها إلى موت بطـــيء.. وأفكـــار مشوشة تنقر في رأسي ، حول تلك الكائنات الرقيقة وغرابتها .

قال : اشترتيهم؟

– مش بتوعي

كتبت له رقم التليفون

قلت : أبقى كلمني .. دا قريب جداً .

– والله ياست ؟ قريب ؟

تركـــته.. تنبهـــت فجأة أنني كتبت له رقم جارتي بعباد شمسها.. الذي ينتصب هناك .. وحيداً في الظلام .

تتحرك أشجار شارع (العاديات) وسط هواء .. خريفى . ظلال التحف والأثـــاث... ثقـــل من ذكريات وأزمنة .. ونبض سرى ما زال هناك.. خافتاً.. حياً.

فـــي وســـط الشـــارع يقع حانوت (الأرمل) حيث اشترى أبي صندوقه الثمين. من أين يأتي كل هذا الوهج؟!

– في نور هنا غير النجفة ؟

– أبداً .. طول عمرنا كده .

– طول عمركم . أنت أللي بترتب المحل ؟

– دا البيه

– والنجفة دى ؟

– مش للبيع .. ما أنت عارفة .. كل ما تعدى تسألي!!

– أنا ؟

– خصوصاً ترتيب المحل

لمـــاذا أنســـى دائمـــا أن الأرمل هو الذي يقوم بترتيبه على هذا النحو الرائع؟! كل هذا الانسجام بين الطرز المختلفة . أفكر بتشوش في توقف علـــى أن أتمـــه . أدرك باعتـــياد واهن أن جسدي كله مشدود صوب الأرض، حيـــث ثقـــل يفتت روحي. الوقت يتراءى لي مثلما يحدث في الحلم . شيء ما يفوتني !!

* * *

تتمدد الصورة داخلي ، تلك التي سرقتني شهوراً طويلة دون أن أجرؤ على إعطائها لها، التوأم وانتباههما المسكون بالغياب .
أنقلها من حقيبة لأخرى، أدسها وسط كتاب.. ثم أبدل مكانها .
حيـــن قمت بطبع الفيلم ، نظر الرجـــل صـــاحب الاستديو إلى قائلا : كانوا نعسانين!!
عندما أعطيتها الصورة قلت : كأنهم كانوا عايشين!!
– ما هما كانوا عايشين .
بعد صمت طويل بيننا قلت : كانوا عايشين .
راحت تعيد الحكاية بطريقة أراحتني أنا أيضا. كررنا على أنفسنا، انهما كانا على قيد الحياة .. حين التقطت لهما هذه الصورة، وأنهما ماتا بعد ذلـــك قـــرب الفجر . طوال سنوات وهي تخترع نظرات لهما. مرات تكرر أنهما كانا ينظران إليها. في مرات أخرى تخمن أنهما كانا يبحثان عـــن والديهمـــا. فـــي النهاية توصلت إلى أنهما كانا يحدقان إلى القطة المرســـومة والمقصوصـــة مـــن إحدى المجلات المعلقة أمامهما فوق الحائط.
لو استطعت فقط اختراع تلك القطة ، ربما أوقفت شروداً مزقني طوال احتفاظي بها وألتباس بعيونهما أسميناه ذات ليلة (حوراً).
قالت : حور !! زى بتاع جدتي .
– البرواز برتقاني !!
– المخدة كمان برتقاني .

* * *

مـــن فوق فراشي أراه، فوق مقعده المفضل بالغرفة العائلية . جانب من وجـــه أمي ينعكس فوق المرآة ذاهلاً، ذراع شقيقتي يضغط فوق كتفها. تـــتفجر الحقيقة داخلي مثل فضيحة . أبى مات في غفلة مني!! لا شيء يدخلني إلى موته سوى هذه المرآة .. القائمة هناك مثل جسر متهالك .. منسي .

كان محدقاً أمامه كأنه يوشك أن يقول شيئاً ما .. وسط انقطاع مفاجئ، لحكاية كان يرويها .

: يـــتكلم .. يتكلم.. وبعدين يقطع كلامه .. كأن حد مسك لسانه ويفضل يبصلنا .

تســـتطرد أمـــي .. أن أمه تحكي أنه دائما وكأن شيئاً ضاع منه. يمشي مسافات طويلة .. ويعود ليكررها. حين يوقفه أحدهم، يتعجل في تركه وكـــأن هـــناك مـــن ينـــتظره. يعاود السير من جديد وعينه في أقصى اتساعها.

هـــل تذكـــر أمـــي أننـــي أنا التي أغلقت تلك العين .. لتظهر أصابعي المضحكة .. هناك. فوق المرآة؟ جسرنا الخائب .

كنـــت أفكـــر أن احتضنه لمرة أخيرة .. بعد أن خلوت به.. وكان ثمة شيء يسرقني . أدرك.. ببطء وغيام، أن (التليفزيون) مازال مداراً دون صـــوت. فـــوق الشاشـــة (الســـادات ــ كارتر ــ بيجن) يبتسمون تلك الابتسامات العريضة وهم يوقعون أوراقهم. أتذكر صوت المعلق، وهو يسترســـل فـــي قصص الشعوب، ويعيد أحداثا تاريخية.. قديمة.. وأنا مازلت هناك فوق فراشي أحدق إلى المرآة، ونوم قديم يتبدد فوقها .

هــل ألغيت صوت المعلق، بدلاً من الإغلاق..؟ هل احتضنت أبي حين خلــوت به؟ أنا التي نامت على رخات الماء في الحجرة العائلية.. كل هــذا الــنوم فــوق الأريكة ، وفقاعات من الصابون تتوقف فوق قاعدة المكتــبة (كتــبك؟!) أنــام وسؤال يبتعد . لماذا يرشون المياه بكل هذا العنف؟

النوم .. كنزي السري !!

* * *

ألمــح أمي متأبطة ذراع خطيب شقيقتي. يعبران الشارع إلى الرصيف المقــابل. اختبأ خلف الأشجار .. أتأملها بحرية دون أن تراني. يتوقفان ويتهامســان فــوق الرصيف المقابل . تخرج إحدى ساقيها من الحذاء الواطــئ وهــي تتكــئ على ذراعه خوفا من السقوط ، ثم تُدخل قدمها بصعوبة في الحذاء من جديد .

كان ذلك يشبه تلصصى على دموعها ليلة عُرسى .. تلك التي ضبطها مصــور (الفــيديو) بــرغم الصخب والفوضى . كم دربت نفسي على مشاهدتها مراراً .. وحدي، في ساعة متأخرة من الليل .

* * *

أسير .. أمي خلفي ، تخفى بفستاني المُربك.. تلك البقعة حتى الحمام .
– مش واخده بالك؟!
– .....
– حد ينسى ؟!
أحـــدق فـــى البقعة وأضحك. تحاول أمي أن تمحوها. أفكر أن أهرب تاركـــة كـــل شيء مثل فيلم ساذج. تمنيت أن أبقي معها طويلاً في ذلك الحمام العابر .. أحكي لها أشياء قديمة كان علىّ أن أحكيها، لكني رحت أفكر في تلك البقعة التي لم ترها أمي من قبل أبداً .
تجرفنى يدها وهي تزيلها إلى حنين ضائع .. مشوش . تنحني بجسدها إلى الفستان وهي تشيح بوجهها عني ، فوق شفتها السفلي رجفة خفيفة. تتسرب أنوثتي ببطء إليها، تردد كلمات وسط ارتجافها مثل نصائح من أم لطفلـــتها حيـــن تهاجمها الدورة الشهرية للمرة الأولى .. ولمعة في عينيها.. سرية.. خائفة .
نعود بعدها إلى الحفل بوجهين هامدين. في نظراتها ما يشبه الضياع .
فـــوق شـــريط الفـــيديو ، اكتشفت أن أمي لا تخلو من تعاسة وغموض وأنني مضحكة أكثر مما أظن .

* * *

– الجسد للرجال !! أهكذا؟
– افهمي كما تريدين .

– إذا ما الذي لنا يا أمي ؟!

أحـــدق فـــى جبهتها.. حيث بداية شعرها المرتب بوسواس ، كما لو أن الإيشارب مازال هناك .. تستبقي أثره فوق الرأس بشد شعرها على هذا النحو .

تشـــيح بوجههـــا، ثم تمضي إلى إحدى الغرف، أفكر في شرودها وهي تنطق جملتها عن الجسد، وشبهة تردد تحوم حول حروفها .

كانـــت تـــنظر في عيني كأنها تحاول أن تلتقط شيئاً بعيداً جداً، تود لو تســـحبه مـــن روحي. أكان (ايه هو أللى لينا؟) صدى لسؤالها، الذي لم تسأله، وكان علىّ أن أخرجه مثل طلقة تشبه (وجسمك أنت يا ماما ؟!). الجسد الذي كان ما يزال صالحاً للأسئلة، والذي كانت تسرقه باحتشامها وبـــ (عزيز قوم ذل).

: من سرقك يا ماما ؟

أقول لطفلي : أنا .. شوف !!

يطلق غضبه في وجهي ، لأني أخطئ في اللعبة التي تعودناها معاً.

: لازم حد يسرقك .. ماينفعش تسرقي وتقولي اتسرقت!!

ينظر زوجي ناحيتي بخبث وتشفٍ . يردد طفلي .

: يا حرامية .. يا حرامية .

أدرك بكسل ويأس أن لزوجي روحاً كاذبة.

أردد : أنا الحرامية .. من زمان قوى !!

أختلس النظرات إليهما. أشعر أنني كائن معتم.. وحيد، أُسرب من دمى كل من أحبهم .

إلى أين آخذهم ؟!

تختفي أمي داخل عربة الخطيب، التي تشق سريعا شوارع المدينة .
لماذا أشعر على نحو غامض .. كأننا ننام متجاورتين معاً في بئر مهمل على قارعة الطريق؟! ربما تصحو قبلي لتوقظني ، كما كان يحدث في صباحات بعيدة .

* * *

أصـــعد درجاتها القليلة .. بتآكلها المزمن.. تكاد قدماى تنزلقان . كيف تهبطها العجوز بكل هذا النشاط إلى الحديقة .. هائمة حول مساحيقها؟!
تلمـــع زهـــور تحـــت الظلام ، يخيل إلىّ أنها عيون لقط عابر، أتجمد مكانـــي. تفـــوح رائحة الثمار .. تلك التي تسقط في غفلة من العجوز، لترقد هناك تحت الأشجار .
– عمري ما لميت الجوافة في ميعاد صح !!
– بس طعمها حلو .
– زمـــان .. الـــناس كانـــت تعدي .. تلمها وتأكل منها، ناس كتير .. دلوقتي الباب مفتوح.. وماحدش بيقرب .
أفكر أن أشجار الحديقة مثقلة بالبراعم التي سوف تتفتح في قلب الريح والظلام .
يتســـلل إلىّ من الداخل صوت خافت لموسيقى شرقية قديمة، أدفع الباب لينفتح بيسر، أترك القفص عنده .. أخطو نحو غرفة العجوز .

كانـــت فـــوق فراشها ... بوجه عار وبياض مقبض . على يميني في الغـــرفة الواسعة يجلس رجل أمام جهاز (الكمبيوتر) تتوقف عيني عند شـــعره اللامع.. أكتم أنفاسي وأنا اقترب منه. أسمع شهقتي .. أهو ذلك الجميل ؟!
يمسك بذراعي وينظر إلى طويلاً. أحدق إلى ساعديه البديعين، لا أجرؤ على النطق .

: سألت عنكِ كثيراً ..
ينظر في عيني مردداً : كما تصورتك تماما.. أنتِ !!
يشـــير إلـــيها: عمتي تموت منذ أيام . الرئتين .. تنام طويلاً ثم تفيق . تطلب أشياء بعينها وتحكي كل شيء
أسمع صوتي بعيدا : حكيت عنه؟ لابد أنها.. لابد
– قالت أنه رجل رائع برغم كل شيء ، ولولا هو لماتت حديقتها.
– هو كمان بيسيب الجوافة تعطب
– بينسي !!
– هو عارف ؟
– بـــتقول أنهـــا عارفة أللي في راسه وهى نايمة .. وحاسة بيه.. وأنه عارف أنها نايمة وشيفاه .
أشير إلى الكمبيوتر .. أهمس: أنتَ أيضا !!
يجلســـنى بجواره. أفكر في جسدي الذي يرتجف بقسوة ، أردد أشياء لا أعنيها عن الموت.. أنظر في عينيه طويلاً .
يضغط فوق الأزرار ، يشرح لي أشياء في الجهاز .. يحكي عن أناس مجهولين يتبادل معهم الرسائل .
– انظري ، قولي أي شيء وسأرسله
– أنا ؟!
– أي شيء ، كل شيء
– كل شيء
– ما اسم الرسالة ؟
– اسمها !!

– أنتِ من يقول اسمها .

تلح عليّ رغبة عارمة في ملامسة ساعديه .. يملؤني الخجل والارتباك أمام بهائه. أفكر أنه هنا بالفعل رجلى الجميل ولكن .. من أين يأتي كل هذا الجمال ؟!

أسمع صوتي منفصلا.. يشبه صوت أمي .. مردداً :

– عباد الشمس .. عباد .. عـــ بـــ .. ا .. د

– عباد الشمس !!

ينظر في عيني .. يقول : لم تحك لي عمتي عن حور عينيك!!

– حور !!

أرتجـــف بين ذراعيه، يضمني إليه كأنه كان يفعل ذلك طوال حياتى.. أفكر برعب في (الحور).

– هل أموت الآن أنا أيضا ؟!

– أنا هنا ..

أفلت منه، أقف أمام العجوز، أتمني أن تصحو .

: انظري .. الرسالة .. هناك .. (ملائكة الظهيرة)

أفكر أنه الجميل.. الجميل !!

: قولى أي شيء .

أجلس بجوارها .. ألامس كفها وأفكر في (البودرة) التي عليّ أن أنثرها فـــوق البـــياض الموحش، وأن لا أحد يجرؤ ويحدد ميعاد موتها.. من يجرؤ ؟!

هـــل قالت الآن (من يجرؤ؟). أقرب وجهي من وجهها، أتحسس رئتيها وأسمعه: سأكتب ما تقولين ..

– تنفسها منتظم !!
– ذلك يحدث .
– أيحدث ؟!
أشـــعر أن مطراً يداعب رأسي.. رقيقاً.. عذباً.. ثم نهدئ وأطرافي .. وشيء يتفجر في جسدي .. معزولا قويا .. يشبه الضوء .
عينه هناك ترجوني بكل شيء .. يقول : أي شيء ..

* * *

أســمع صـــوتي : لي أريكة هناك، يجلس حولها أناس لا يرون تماماً.. تأتينـــي مـــثل حلم، أمي توارب الباب دوني !! وهنا فى الأسفل حديقة تملؤهـــا الفوضى، لكنها بديعة. قابلت سيدة حكت لي أشياء حول أجمل رجل في حياتها. أنا أيضاً رأيت جميلي. أعرف ذلك. ضاعت قصائدي في عربة مجهولة.. هل يأتى المستقبل بلا قبلات؟ كم يرعبني هذا!!
يتوقف عن الكتابة، ينظر ناحيتي.. تتحسس يدي صدر العجوز والموت الكامن فيه.. أسمعه.. يقرأ الرسالة:
– لي جار أطلق على أسرته الرصاص.. زوجته وأولاده.. ثم انتحر!! ذكرتنـــي حديقـــتك الجمـــيلة بذلك. كان له أيضاً حديقة ساحرة امتلأت بالضـــحايا فى تلك الليلة!! بعدها.. حين كنت أراقبها من نافذتي بدا كل شئ لى صالحاً للضحك. أقول.. لقد قررت ذلك. أما القبلات يا سيدتي، فمن المدهش أنني فكرت أنا أيضاً على هذا النحو وفزعت !!

هل يمكن أن تقبليني الآن ؟

يقول الجميل : لابد.. قولي له أنك ستقبليه الآن .

أنظر إلى وجه العجوز : أقبله الآن ؟! القبلة ...!!

هل ابتسمت لي ؟

: ولكنه غير موجود .. هل ..؟

ألمـــح وجهي فوق مرآة أمامي .. ناصعاً وجميلاً رغم التعب الطويل.. وهـــناك فـــي العينين يرقد ذلك الحور !! من أي سرداب تسلل إلى هذا الضوء الهامد ؟

أنســـحب إلـــى عيـــن الجميل الذي ينظر إليّ من فوق مقعده. يا لغرابة الجمال، وغرابة الرعشة التي تخرج من موات.. أي سر ؟

أغـــرق في الماء الساخن الذي كانت أمي تغمرني به وتحممني، الخدر يـــتمدد مـــن أعلى الراس لتنشط الأحلام والملائكة، إلى العمود الفقري الـــذي يدفـــع الأرض إلى التلاشي تحت القدمين. صوت يخبرني أنني أنام.. شفاه تحوم حول شفتي.. البخار يتصاعد ويلفني. صوتي مردداً : هنا .

أفكـــر أن ذلـــك يحـــدث برغم نومي، أشعر تماماً بطراوة تلك الشفاه.. أتحســـس الســـاعدين الجميلين.. بوعي أكثر اكتمالا .. وبنوم رائع.. يا ألهى.. القبلة الأولى !! يا ألهى الجميل .

– هل نمت ؟!

– أنا أيضاً !!

* * *

الأثـــر الساحر للشفاه مازال يخفق في فمي.. يقف أمام الكمبيوتر.. وأنا خلفـــه بجسد غامض.. ممتلئ بي . أسمعه يردد : هناك رسالة أخرى!! يقرأ:

– أنا مدين لك يا سيدتي.. لقد منحتيني حلماً رائعاً

– أحقاً ؟!

– ماذا ستقولين ؟

– قل.. أن ذلك يشبه ألـــ ..!!

– .....

– هل أنا .....؟!

ينظر في عيني طويلاً.. أشير إلى العجوز .

– أتيت من أجل..!! هل حدثتك عن البودرة ؟

– أنـــتِ أفضل من يفهم وجهها.. بالأمس غنت كثيراً برغم المرض.. قالت أنكِ تشبهينها .

– ..... ليتني ..

– كنت سأنظف جسدها بالعطر قبل مجيئك

– أتستطيع ؟

– أنا طبيب .. ماذا أكتب ؟

– ..... ألا تعرف ؟

أسمع صوته يردد ما يكتبه فوق الشاشة

: أنتَ أيضا منحتني ذلك الحلم.. ستظل الحديقة هناك .

يتداخل صوت العجوز الواهن مع صوته مردداً (: الجميل والحديقة) أضمها بين ذراعي وأرتجف .

تقول : إلى متى ستظلين هكذا ؟
تأخذ كفى بين كفيها، تقبلهما : أنت هنا. ستنظفين جسدي أيضاً.
أخبـــئ رأسي في صدرها.. أهذي بأشياء عن الجسد مثل طفلة تستعيد كلماتهـــا الأولى.. أردد أنني سأنظف جسدها كما ينبغي، يأتى بالعطور وأشياء أخرى .
نجرد الجسد الواهن من ملابسه، يرفرف بين أيدينا .
– غريبة الأقدار أللي ..
تردد معي العجوز – أللي...
– طول الوقت لوم... لوم
– يـــا عبـــيطة.. شايف!! عنيها ما بيتقفلوش أبداً .. طول الوقت تتلفت حواليها ..

تفلت من بين أيدينا صاخبة وعارية

– أنا شفت كل حاجه.. وهما بيطلعوا فوق لغاية ما اختفوا وبعدين وهما بـــيقعوا واحـــد ورا الثاني .. أنا سبتلك ألبوم الصور بتاعى.. يا عبيطة ماليش ولا صورة معاك ؟!

– كل الصور ؟

– غاوية تصوير.. وبسرعة.. بسرعة.. خايفة يجروا منك .

– يجروا !!

أضغط فوق الجسد برفق .. عيني في عين الجميل .

* * *

: الليل. أهو الليل؟ أنتَ تبللها كثيراً. دعنى أنظف النهدين، هل أهذى ؟ أنتَ تبكى أيضاً؟ أنا أبكى!! الآن أبكى.

أمـــي تخشـــانى.. لـــم يكن أبى ينظر إلى وجهي.. لا.. لا أنا لا أخاف الـــ..!! من جاء فى أخر الفيلم ؟

كان هناك ... الغرفة .. التي .. العسكري !!

كيف نسينا تلك الخطابات معه ؟!

نعم .. في المخزن، لا أعرف كيف التقطت له هذه الصورة !! لن أنسي .. لن ...

توديـــن لـــو تأتين معي ..؟ ضع هنا بعض العطر.. نعم نعرف كم أنت جمـــيلة.. هـــنا سأنظف الكفين. دعيه ينظف القدمين.. أليس هذا رائعاً؟ الـــبودرة!! ولم لا ؟ أنا أبكى وهو أيضاً. كل شئ . أنام لأحلم !! أتعذب بحـــبه ، أنـــه طفلي .. لن يفلت مني. أنتَ أيضاً ترتعش .. ولكنك..!! أنظـــر كـــم أنتَ جميل . كثير من البودرة تحت العينين البديعتين، أنك ثغرقينـــنا بهـــا.. هـــنا بيـــن الفخذين.. فوق الساقين، الغرفة كلها.. ما تريدين.. نعم.. سوف تنامين بيننا عارية.. عارية !!

قالت : من أين أتيتِ بكل هذا الجمال في هذا الوقت ؟!

: أنا !! أي وقت هذا ؟!

* * *

يتلصصـــن من خلف الستائر.. بوجوه معتمة.. أسمع أنفاسهن بوضوح. أفكـــر أنهن كن في النهر .. يسبحن عاريات وأنا معهن.. نحمل طفلي الـــذي ولـــد مـــنذ لحظات فوق كفوفنا.. نشق به النهر تحت الشمس.. وإيشاربات كثيرة يجرفها التيار.

* * *

العجوز.. هل ماتت؟ إذا لمن كل هذه الأنفاس التى تنتظم بروعة؟
أتفـــرس فيها.. ممددة بيننا.. ملفوفة بملاءة بيضاء حتى صدرها. تتسلل التجاعـــيد من الكتفين.. تختفي كالسحر. الجميل على الطرف الآخر.. أغمـــض عيني وأنا أتشبث به أطول وقت ممكن. أشعر بألم في ذراعي الأيســـر، أرفعـــه بحذر ليرتفع معه ذراع العجوز.. كفها قابض على كفـــى. أتأمل عريها المتسرب من تحت الغطاء، أفلت أصابعي من بين أصابعها، يتساقط مسحوق من بين كفينا.. ألـــ!!
أتشممه طويلاً.. كم يشبهه!! (ريحته فيها حاجه)
أكان هذا الصوت لي ؟

يهاجمنـــي ضوء رمادي من الشرفة.. يشتتني.. أفكر في مديتنى الهائمة خلف زجاجها والتي تشبه عين التوأم .
أفكـــر بغمـــوض وحـــذر فى حكاية على أن أحكيها من جديد، قبل أن أنسى.. على أن أسرع قبل أن ..!!

الجمـــيل أيضاً.. كفه يقبض عليه بقوة.. أتشممه. تهيم في الغرفة رائحة حـــادة .. مـــزيج مـــن البودرة والعطر.. والموت. صوت يهمس لي.. والقبلات أيضاً .

في العادة أستيقظ متأخرة
مثل قطة مؤجلة في صندوق للموتى
لكنني أصدق كل أحلامي
وكل الظلام المحفوف
بالنرجس
أستيقظ متأخرة جدا ...
ولا انسى

* * *

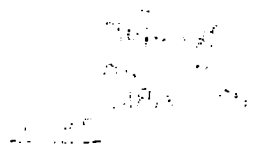

الظلال البعيدة تحتشد فى الغرفة.. تمسح وجوهنا.. أرانى هناك.. وريثة الصور.. صاحبة الأصابع المضحكة والجسد الملتبس مثل شيء يكاد أن يـــنفرط. أيشـــبه ذلك الساعات القليلة قبل الدورة الشهرية!! هل أعيش دورة شهرية طوال الوقت.. منسحبة غامضة.. واضحة بوحشية!! لماذا تـــنهل العجوز من موتها على هذا النحو الرائع؟ أى هذيان هذا ، وأى دخان كثيف أطفو فوقه ؟!

يتلصصن من خلف الستائر.. بوجوه
معتمة.. أسمع أنفاسهن بوضوح. أفكر
أنهن كن فى النهر.. يسبحن عاريات وأنا
معهن.. نحمل طفلي الذي ولد منذ
لحظات فوق كفوفنا.. نشق به النهر تحت
الشمس.. وإيشاربات كثيرة يجرفها التيار.

ميريت
للنشر والمعلومات